الإيمـــان بمحمّـــد
صلى الله وبارك عليه وآله

النيّل عبد القادر أبو قرون

الإيمان بمحمّد صلّى الله وبارك عليه وآله / فكر
النيّل عبد القادر أبو قرون / مؤلّف من السو دان
الطبعة الثانية، ٢٠٢٤

الناشر
اونيكس للتواصل الفكري - بريطانيا

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .

قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّـيِّينَ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[1]

﴿ . . . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2]

(١) سورة الجمعة : ٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٨٥ .

مفتتح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمدُ لله الذي جَعَلَ قِمَّةَ المَدحِ حُسن الخُلُق ، ومَدَحَ حَبيبَه محمد صلى الله وبارك عليه وآله بعظيمها ، وبَيَّن للناسِ عَن طَريقِه أفضَلَ الطُرُق وقَويمها ، ولم يُوقِف عطاياه على مَن سَلَف ، ولا يبخل بها على مَن خَلَف . فجوده غير محدود ، وأمره غير مردود ، وهو الكريم الودود . وقد يعطي للمتأخرين ، ما لم يكن للسابقين .

وَصَلِّ اللهم وبارِك على قِبلةِ تَجَلِّياتك ومظهر آياتك وخاتم رسالاتك ، منبع العلم والحلم ، الذي قصرت عن معرفته معارف العارفين ، وتاهت في حقيقته بصيرة المؤمنين ، وعجزت عن إدراكه أبصار المشاهدين ، لأنه حق كما قلت سبحانك : ﴿**وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . . .﴾[1] كما أنّه بشر لقولك ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . . .﴾[2] فمن ادّعى كمال المعرفة به فقد جهل ، ومن فضّل رأياً غير رأيه فقد خُذِل . فإنّا نلوذ بك اللهم

(١) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٢) سورة فصلت : ٦ .

لترزقنا محبته ، فهي التي عليها المدار إذ هي الإيمان ، وبها بلوغ المراد في الدار الحيوان ، لأنّ المرء مع من أحب كما جاء عمّن لا ينطق عن هوى . فاجعل اللهم ما يجري على يدي من هذا الكتاب زيادة لي ولأهل الحب في محبته ، ونجاةً لمن كان غافلاً من غفلته ، وشفاءً لمن آذته بعض المصادر فيما نسبته إلى النبي وعترته .

ولا أُلزِم بهذا أحداً كما أنّه لا يلزمني فهم أحد ، فالنَّص عندي مقدّس ولكن الفهم غير مقدّس مع احترامي لكل صاحب رأي ولو كان مخالفاً . فإنّ أفضل من بُعِث ما كان عليه إلا البلاغ ولَم يُكَلَّف الحرص على استجابة من يُبلِغه قال تعالى ﴿**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ . . .**﴾[1] ولا على هداية الضالين ، قال تعالى ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . . .**﴾[2] لأنه لم يكن وكيلاً عن اللّه سبحانه ، وقال تعالى ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ**﴾[3] فكانت رسالته صلى الله وبارك عليه وآله مجرد إبلاغ ، قال تعالى ﴿ . . . **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ . . .**﴾[4] فالذي يرفض الإسلام ولو من

---

(١) سورة النحل : ٣٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(٣) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٤) سورة العنكبوت : ١٨ .

الرسول نفسه لا يُفرض عليه قال تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلَاغُ . . .﴾[1] ﴿ . . . **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** . . .﴾[2] وإن كان هذا نهج الرسالة عند أعظم رسل الله فكيف لغيره أن يلزم أحداً بالأخذ عنه؟ وعلى الله قصد السبيل ونسأله حسن الختام .

(١) سورة الشورى : ٤٨ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

معنى العصمة

الحمدُ لله سبحانه المُعطي لجَزيلِ نعمائه ، والشُّكرُ لرسولِ الله صلى الله وبارك عليه وآله القاسِم لآلائه ، فقد جاء عنه صلى الله وبارك عليه وآله أنه قال : «**الله المعطي وأنا القاسم**»[1] ، فَلَهُ الشُّكر لأنَّ مَن لَم يَشكُر الناسَ لَم يشكُر الله ؛ وأَولى الناسِ بالشُّكرِ محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، لأنّه ﴿ . . . **أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** . . . ﴾[2] ، ولأنه «**سيد ولد آدم ولا فخر**»[3] كما قال ، وهو أصدَق القائلين .

اللهم إنا عاجزون عن الصلاة عليه ، فَصَلِّ اللهم أنت عليه حتى تَرضى . فإنَّ رضاكَ هو مُبتَغى الأنبياء ؛ ويوضح ذلك مَن اصطَنَعتَه لنفسك (موسى عليه السلام) حيثُ قالَ فيما قَصَصْتَه في أحسَنِ القَصَصِ عِندك : ﴿ . . . **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** . . ﴾[4] .

---

(١) البخاري .

(٢) سورة الأحزاب : ٦ .

(٣) سنن ابن ماجة .

(٤) سورة طه : ٨٤ .

ويَقفُ العقلُ عاجزاً أيضاً عَن مَعرفة رِضاك : هل هو أمرٌ مِن القِدَم – لأنَّ فِعلَ القديمِ قديمٌ – أم هو أمرٌ يَحدُث مُقابِل فِعلٍ يَصدُر مِن العَبدِ الحادِث ، ويُستَجلَب بالدُعاءِ والقُربات ، ورغم ذلك يوصَف بالقِدَم؟ هنا يظهَرُ عَجزُ العَقلِ عَن فَهم تَجلِّياتك وأفعالك ، وتعالَيتَ أنْ تكون مِن أصحابِ العُقولِ والتفكير ؛ وبالإضافةِ إلى ذلك فإنَّه يتعسَّر على الإنسان معرفةُ ما يُرضيك ، لأنَّ مرجعيتَه في ذلك هو ظنُّه واجتهادُه العقلي ، وقد يكون مُخطئاً . ولا بد مِن التَّعَثُّرِ مَهما فَعَلَ المُجتَهِد ما لم يكن معصوماً ، ولا أقصد بالعِصمة هنا عِصمة النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله لأنَّ عِصمتَه هي فعله ، لأنه هو الذي يخطّ الطريق فلا يُقال في عِصمَتِه إنه لا يُخطئ ، فالذي يُخطئ أو لا يخطئ هو المُتَّبع ومحمد صلى الله وبارك عليه وآله ليس مُتَّبِعاً بَل مُشَرِّعاً . فقصدي في المعصوم هنا هو المتّبع لمحمد صلى الله وبارك عليه وآله ولا يخطئ .

ولا مجال للحديثِ عن الخطأ في حق النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، لأنه حق ﴿ . . **وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . . ﴾[1] ﴿ . . . **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** . . ﴾[2] وعلى ضوء هذا فليُراجِع المُسلمُ اعتقادَه في ما جاء في حقّ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ، حيث قالوا إنّ مَن كان

---

(١) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٢) سورة يونس : ٣٢ .

يتَعامَل بالسِّحر استطاع التأثير على عقله حتى كان يرى أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، كما ذكروا في البخاري الذي يَعزُّ على كثيرٍ من الناس أن ترفض حديثاً فيه كأنّه هو المعصوم ، وليس النبيِ صلى الله وبارك عليه وآله! فقد روي « . . . **عَنْ عَائشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْه أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ**»[1] وفي رواية أخرى « . . . **حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلاَ يَأْتِيهِنَّ**»[2]!! والبخاري هو المصدر الذي يقول إن عمر بن الخطاب يخشى الناس أكثر مما يخشى الله حيث نُسب إليه فيه قوله : « . . . **لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللَّه لَكَتَبْتُ آيَةَ الرَّجْم بِيَدِي**»[3]!! وهذه المقولة تدل على أن هناك آية ناقصة من كتاب الله يشهد عمر على أنها لَم تُدَوَّن ؛ أو أنَّه يُريدُ أن يُضيفَ آيةً جديدةً لكتابِ الله . فهل نضيف إلى اعتقادنا أن كتاب الله الذي بين أيدينا به نقص؟ وأن عمر أثبت ذلك وأنه كان يمكنه تصحيحه ، ولكنه خشي الناس أكثر من خشيته لله؟ ولماذا يخشى الناس؟ ألأجل أن يظلَّ أميراً عليهم؟ أهكذا كان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني؟ وهل بقي شيءٌ مِن الإساءةِ إلى شخصِه بعد نِسبة هذه المقولة إليه؟

---

(١) البخاري .

(٢) البخاري .

(٣) البخاري .

والبخاري أيضاً هو المصدر الذي ينسب لعمر مخالفته بل اعتراضه على رسول الله صلى الله وبارك عليه وعلى آله في عدد من المواقف ، منها صلاة النبي على عبد الله بن سلول ، بحجة أنه منافق . وهل يجوز أن نقبل أنَّ هذا الاعتراض صَدَرَ والله سبحانه يقول : ﴿ . . . **فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ** . . . ﴾[1] وبَعد أن جَعَلَ طاعةَ الرسول هي طاعة الله ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** . . . ﴾[2]؟ والرسول صلى الله وبارك عَليه وآله لا يصلي على منافق لأن الله قال له : ﴿**وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا** . . . ﴾[3] فإذا صلى على أحَد فذاكَ يَعني أنَّه ليس منهم ؛ لاستحالة مخالَفَته للأمر فيما جاء به من كتاب الله لقوله تعالى : ﴿ . . . **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ** . . . ﴾[4] ولا أحد أعلم بالمنافقين من رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ، ولَم يُسَمِّهم . وعمر (رضي الله عنه) نفسه كان يسأل حذيفة أهو منهم . وكان لا يصلي في عهده على جنازة إلا إذا حضر حذيفة لعلمه بالمنافقين دونَ غيره من الصحابة . فمن أين جاءوا بِعِلم عُمر للمنافقين حتى يَعتَرِض بِه على عِلم رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله الذى قال له الحق سبحانه :

---

(١) سورة الحج : ٦٧ .

(٢) سورة النساء : ٨٠ .

(٣) سورة التوبة : ٨٤ .

(٤) سورة الانعام : ٥٠ .

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ . . .﴾[1] حتى أعلَمَهُ الله بِهِم وهو لَم يُعلِم أحَداً بِهِم غير حذيفة (رضي الله عنه)؟ فالذي يُصِرُّ على صحة هذا الحديث والأخذ به فإنه يقول إنّ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله خالف ما جاء به في كتاب الله ، وعصى أمر ربه المباشر ، وصلى على منافق . وأنّ عمر حاول تصحيحه بهذه الآية حيث جاء في حديث عمر : « . . . **أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ . . .**»[2] . ولكن رغم ذلك صلى الرسول صلى الله وبارك عليه وآله على ابن سلول!!! فهذه صورة النبي صلى الله وبارك عليه وآله مع صورة عمر عِند مَن يأخذ بمثل هذه الأحاديث!!! ومنها ما نُسِب إلى عمر في رفضِه واعتراضه على رسول الله أن يكتب للناس كتاباً لا يضلوا بعده ، إذ جاء في البخاري أنّه قال للرسول صلى الله وبارك عليه وآله : «**حسبُنا كتاب الله**» ، وكتاب الله يوجب عليه الطاعة للنبي لا الاعتراض . فالذي يؤمن ويعتقد بما جاء به كتاب الله هو الذي يكون أكثر الناس طاعة لرسول الله ، وإلا يكون مخالفاً لكتاب الله وأمره لأن كتاب الله يقول له : ﴿ . . . **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ . . .**﴾[3] ويقول تعالى : ﴿**وَمَا**

---

(١) سورة التوبة : ١٠١ .

(٢) مسلم .

(٣) سورة الحشر : ٧ .

﴿ **أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ . . .** ﴾[1] ويحـذر من المخالفة التي توقع صاحبها في العذاب ﴿ . . . **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[2] . وعظمة الصحابي تكمن في طاعته وتوقيره ومحبته لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لا بمعارضته ، بدعوى علم أو فَهم ، لاستحالة كونه أعلم منه أو أعرف منه بما جاء به ، ولا تجتمع المحبة مع المعارضة . وحاشا رسول الله صلى الله وبارك عليه وعلى آله أن يكتب أو يقول شيئاً يُخالف كتاب الله الذي لا يوجد على وجه الأرض أحَدٌ أعرَفُ بِهِ مِنه ، وهو معصوم في صحته ومرضه ولا تفارقه العصمة بالمرض أو الوجع . فأساءوا إلى عمر (رضي الله عنه) بإثبات منازعته لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ؛ ليقولوا بصحة كل ما جاء في البخاري ويجعلوا المخالفة من المناقب!!

وأي نوع من السِّحر الذي ذكره البخاري هذا الذي يتحدَّى القرآن الذي في قلب محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، ويعطي الغَلَبة لسحر ساحر على أفضَل الرسل؟ وذلك رغم قول الله تعالى : ﴿ . . . **وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** . . ﴾[3] ﴿ . . .

---

(١) سورة النساء : ٦٤ .

(٢) سورة النور : ٦٣ .

(٣) سورة المائدة : ٦٧ .

وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[1] ولو سئل أي مسلم بِمَ يُبْطَلُ السِّحرُ لأجاب «بالقرآن» ، فالذي يعتقد أن السحر لا يبطله القرآن بل يؤثر على مَن أُنزِل عليه القرآن فليتخذ ساحراً نبياً له .

لقد أبطل موسى عليه السلام سحر الساحرين بعصاه ، وعنده كتاب الله التوراة ولم يَتْلُ عليهم منه آية ، وذلك ليعلم الناس أن السحر أقل مِن أن يُقارَن بما أنزل الله . وهل أحاديث البخاري المزعومة هذه تدعو لحب عمر (رضي الله عنه)؟ أو تجلب للمرء حب النبي الذي هو الإيمان؟ وهل المحافظة عليها هي المحافظة على السنة ورَفضُها هو الخروج عنها؟ ﴿ . . . **أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[2] .

---

(١) سورة طه : ٦٩ .

(٢) سورة محمد : ٢٤ .

لطائف موسوية

لقد ظنَّ كليمُك موسى عليه السلام أن رِضاكَ في أن يَعجَل إليك فسَبَق قومَه ، فكان ذلك سبباً في استيضاح فعله – إن لَم يكن عتاباً – فقيل له فيما قَصَدَ به الرضى ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾[1] وكأنّ ذلك كان سبباً أيضاً في فتنة قومه من بعده . ولم يُجد تبرير موسى لسَبْقه لقومه ، حين قال : ﴿ . . . **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾[2] ، فإنّ رضى الحَق ليس كما يرى الخَلق أو يظنون ، وكلّ فعله عدل ولا يُسأل عما يفعل ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾[3] . لا يفهم من قولنا هذا أننا نخطّئ نبي الله موسى عليه السلام فإننا نقول بعصمة الأنبياء . ولكنّه حَدَثٌ سقناه لتبيين عجز الخلق عن معرفة ما يرضي الحق سبحانه ، فليس فيما جرى من موسى عليه السلام خطأ شرعي . فإن قيل إنه ترك قومه ، وعلى المرسل أن يكون بين قومه حتى

---

(١) سورة طه : ٨٣ .

(٢) سورة طه : ٨٤ .

(٣) سورة طه : ٨٥ .

إكمال رسالته ، فذلك حقّ ، وتلك هي مهمة الرسل ، وذلك ما أُخذ على ذي النون عليه السلام ﴿ . . **إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا** . . .﴾[1] وترك قومه فوصفه الله سبحانه بأنه ﴿ . . **أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾[2] ؛ والملك جلَّ جلاله له أن يقول ويصف عبده بما يشاء ، ولكن يجب علينا نحن الأدب مع من اختصهم بقربه ، فلا نقول في حقهم ولا نصفهم إلا بما يليق بمقامهم الرفيع مع جلال الملك تعالى . فإن كان وصفه لذي النون أنه ﴿ . . **أَبَقَ** . . .﴾ فذلك وصف الملك لعبده ، ولكن أين نحن من عبده الرسول؟

يجب أن نقف عند قول الله تعالى ، مع اعتقادنا أن ذلك كان بين يونس وسيده المليك المتعال ، فالله غيور على عباده الذين اصطفى ، فلا نقول إلا كما قال تعالى : ﴿ . . **أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾ لا نغيِّر كلمةً ولا نزيد كلمة ، فقُذف في البحر والتقمه الحوت ؛ قال تعالى : ﴿**فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[3] فإن ذا النون حينما التقمه الحوت قال : ﴿ . . **لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[4] ؛ قيل إنَّ سر الإجابة لدعاء المؤمن

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٢) سورة الصافات : ١٤٠ .

(٣) سورة الصافات : ١٤٣-١٤٤ .

(٤) سورة الأنبياء : ٨٧ .

الذي يصيبه الغم مُتَضَمَّنٌ في هذه التسبيحة اليونسية ، فقد قُرِنَت نجاةُ يونس عليه السلام بقوله لها ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ . . .**﴾[1] وجاء الوعد الالهي بالنجاة من الغم لكل مؤمن يدعو بها ؛ قال تعالى : ﴿ . . . **وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[2] والسر في قبول هذه التسبيحة هو معرفة النفس ووضعها في مقام التواضع والانكسار أمام الملك الجبار . قال أحدُ العارفين : «اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري» فقيل له : كيف تقول ذلك عن نفسك!؟ فأجاب هكذا عَرَّفنيها مَن يَعرِفُ خائنةَ الأعيُن وما تُخفي الصّدور حيث قال : ﴿ . . . **إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾[3] .

انظر إلى رسول الله يونس عليه السلام يقول عن نفسه ﴿ . . . **إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[4] هكذا يصف نفسه!! فما لبث أن تداركته الرحمة بالنجاة من الغم . ثم أُعيدَ إلى قومه وأكمَلَ رسالَتَه . قال أحد العارفين عجبتُ لَمن أصابَه غَمٌ وعنده وَعد الله تعالى في قوله : ﴿ . . . **لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[5] .

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٨ .

(٢) سورة الأنبياء : ٨٨ .

(٣) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٤) سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٥) سورة الأنبياء : ٨٧ .

لا تفوتنا الإشارة إلى قول الحق تعالى في يونس عليه السلام : ﴿ . . **فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ** . . . ﴾[1] فلا يعني ذلك أن يونس عليه السلام كان يظن أنه فوق قدرة الله وسلطانه كما ظنّ بعض السلف من المفسرين -عفا الله عنهم- إذ لا يعقل أن يصدر مثل هذا الظنّ من رسل الله صلوات الله عليهم ، كما يستحيل أن يصدر عن أحدهم الكذب كما قالوا زوراً وبهتاناً على إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام ونسبوا الحديث إلى رسول الله محمد صلى الله وبارك عليه وآله افتراءاً عليه وقالوا «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات**»[2] ، وإذا ثبت الكذب على الأنبياء فعلامَ تُلام العباد؟ وهل للكاذب أخلاق؟ وهل يصحّ أن تؤخذ الشرائع الإلهية من أنبياء ورسل كاذبين؟ وكيف يصحّ قولهم هذا مع صالح الأخلاق التي جاءت مِن أجلِها بعثةُ خيرِ خلق الله والذي أثبت أن المؤمن لا يكذب؟ وذلك حينما قيل له : أيكذب المؤمن؟ فقال «**لا إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون**»[3] . هل قصدوا تجريد إبراهيم عليه السلام عن الإيمان؟ أم قَصَدوا أن ينسبوا إلى رسول الله محمد صلى الله وبارك عليه وآله قولاً يُخالف القرآن؟ فإنّ الله سُبحانه يقول :

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٢) البخاري .

(٣) الدر المنثور .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾[1] . فالأخذُ بحديث البخاري هذا وتصديقه يجعل المرء في أحد هذين الموقفين أو كليهما ، فيَنسب الكذِب لإبراهيم عليه السلام ، ومُخالفة القرآن في حقّ النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، ليخرُج بذلك عن الدين بالكُلِّيَّة!! وقد نسبوا إلى النبي صلى الله وبارك عليه وآله ايضاً قول : «**لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»[2] بينما التفضيل وارد في القرآن ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . .**﴾[3] أما التفريق فهو غير وارد ﴿ . . . **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ . . .**﴾[4] ومحمد صلى الله وبارك عليه وآله هو افضل المرسلين ، وجاء بيان التفضيل في قوله تعالى : ﴿ . . . **وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾[5] . وفي قوله تعالى : ﴿ . . . **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾[6] .

إن كل ما هنالك من أمر يونس عليه السلام ، هو أنه

---

(١) سورة مريم : ٤١ .

(٢) البخاري .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٣ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٥) سورة القلم : ٤٨ .

(٦) سورة الإسراء : ٥٥ .

استبطأ قدرة الله في استجابة القوم له ، وهذا يدخل في معنى الآية ﴿**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا . . .**﴾[1] فإنّ الأمر إذا بلغ درجة تعجز قدرة الإنسان عن تَحَمُّله يكون المرء قد بلغ درجة الاضطرار التي حينها تتدخل القدرة الإلهية لمن كان يرجو الله . قال تعالى : ﴿**أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ . . .**﴾[2] .

أما موسى عليه السلام فنقول إنه ترك فيهم أخاه هارون ، وهو شريك له في الرسالة كما قال تعالى : ﴿**اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي**﴾[3] ﴿**فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[4] فلا يُرى فيما جرى من موسى عليه السلام في تركه لقومه ما يؤخذ عليه لأنّ وجود هارون فيهم كوجوده ﴿ . . **إِنَّا رَسُولُ . . .**﴾ . هذا فيما يرى الخلق . ولكن الله بصيرٌ عليمٌ بدقائق الأمور ويعلم خائنة الأعيُن وما تخفى الصدور ، وأكثر من ذلك فإنه ﴿ . . **يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ . . .**﴾[5] وهو ﴿ . . **أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[6] . فإن لم تسع الخلق رحمته

---

(١) سورة يوسف : ١١٠ .

(٢) سورة النمل : ٦٢ .

(٣) سورة طه : ٤٢ .

(٤) سورة الشعراء : ١٦ .

(٥) سورة الأنفال : ٢٤ .

(٦) سورة ق : ١٦ .

أهلَكَهُم الحساب ، فإنَّ مَن حوسِب هَلَك ، ولكنّه تعالى ﴿ . . **وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** . . .﴾[1] سبقت رحمته غضبه وهو الحليم الودود ولا يخاف لديه المرسلون ، قال تعالى : ﴿ . . **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** . . .﴾[2] فلم تترك مجالاً لغيرها . وكانت الذات الشريفة المُحَمَّديَّة تجسيداً لهذه الرحمة ؛ قال تعالى : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً** . . .﴾[3] وقال تعالى : ﴿ . . . **إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** . . .﴾[4] قال صلى الله وبارك عليه وآله «إنما أنا رحمة مهداة»[5] .

جاء الرد الإلهي على سَبقِ موسى لقومه بفتنة القوم من بعده ويظن بعضهم أنَّ فتنةَ القوم من بعد موسى عليه السلام عقابٌ وَقَعَ عليهم لفعلٍ أقدَمَ عليه موسى عليه السلام ، فكيف يُعاقَب جَمعٌ بفعلِ غَيرهم والله سبحانه يقول : ﴿ . . **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** . . .﴾[6]!؟ لكن الأمر ليس كذلك فهو في حقيقته يتعلق بموسى لأنه مرسل لهداية القوم بعد تحريرهم من فرعون فالذي جرى لهم هو زيادة عبء في أداء رسالته عليه السلام .

---

(١) سورة النجم : ٣٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٦ .

(٣) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٤) سورة الدخان : ٥-٦ .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة .

(٦) سورة الأنعام : ١٦٤ .

قـد تُلاحَظ عَظَمَـةُ الحلم الإلهي في تعـامله سـبـحـانه مع رُسُله ، وكنّا قد ذكرنا ما كان من أمر ذي النون عليه السلام . ونذكر أنّ موسى عليه السلام حينما كلمه الله سبحانه وكلفه بالرسالة وأمره بالذهاب إلى فرعون اعتذر عن القيام بها ، واقترح على الله أحداً غيره ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**﴾[1] . أنظر إلى وُسع الحِلم الالهي في كيفية التعامل مع رسله ، فإن موسى عليه السلام اعتذر عن التكليف الإلهي بالرسالة ، وأبدى أسبابه في الاعتذار لخوفه من أن يكذبوه وخوفه من أن يقتلوه – رغم أن الله سبحانه هو المُرسِل له والحافظ – وشكى من ضيق صدره وتعثُّر لسانه ، وهو يعلم أن الله خالقه وأعلَمُ به من نَفسه ، واقترح على الله أن يرسل إلى هارون و﴿ . . . **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** . . .﴾[2] فيجئ الرد الإلهي الرحيم الحليم الودود اللطيف دون زجر أو تهديد ﴿**قَالَ كَلاَّ** . . .﴾[3] فلا بد من تنفيذ الأمر الإلهي ﴿ . . **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ** . . .﴾[4] ثم يضيف إليه أخاه هارون شريكاً في الرسالة ﴿**قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا**

---

(١) سورة الشعراء : ١٢-١٤ .

(٢) سورة الأنعام : ١٢٤ .

(٣) سورة الشعراء : ١٥ .

(٤) سورة يوسف : ٢١ .

بِآيَاتِنَا . . .﴾[1] ويعلم موسى من قوله تعالى ﴿ . . . **فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا . . .﴾** أنه تعالى قد وهب له من حضرة الرحموت أخاه هارون ؛ ليكون معه شريكاً في الرسالة ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**﴾[2] .

(١) سورة الشعراء : ١٥ .

(٢) سورة مريم : ٥٣ .

الأرض

خلق الله سبحانه الأرض أولاً في يومين ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين ، وأرسى فيها الجبال ، ثم استوى إلى السماءِ فقضاهُنَّ سبع سمواتٍ في يومين لتكون سَقفاً للأرض ، ثم دحا الأرض بعد ذلك لتكون مَسكناً لخليفته الإنسان الذي هو أفضل مخلوقاته ، قال تعالى : ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[1] . فليست الأرض جزءاً مُقتطعاً من السماء كما يظُن بعضهم ، بل هي الأساس والمركز الذي انطلق منه الوجود ، وتم فتق السماء منها في شكل دخان بعد أن ﴿ . . .

(١) سورة فصلت : ٩-١٢ .

كَانَتَا رَتْقًا . . .﴾[1] ورفع السماء ﴿ . . . رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . .﴾[2] ليجعلها سقفاً لها ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا . . .﴾[3]، وزيَّن هذا السَقف المحفوظ ﴿ . . . وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[4] وهو الذي ﴿ . . . يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ . . .﴾[5] ثمَّ دحا الله سبحانه الأرض لتكون مسكناً لخليفته ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[6] فالأرض بالنسبة للوجود كالأم ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[7] فأتم الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴿ . . . ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى . . .﴾[8] ففي هذه الأرض تقوم الساعة، وتعاد الحياة، ولا يتغير اسمها رغم ما سيحدث

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٢) سورة الرعد : ٢ .

(٣) سورة الأنبياء : ٣٢ .

(٤) سورة الحجر : ١٦ .

(٥) سورة الحج : ٦٥ .

(٦) سورة النازعات : ٣٠ .

(٧) سورة البقرة : ٢٩ .

(٨) سورة الرعد : ٢ .

من تغيير لها وللسماوات ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ . . .**﴾[1] .

أنبَتَ الله سُبحانه وتعالى النبات من هذه الأرض التي أهم مكوناتها التراب ، فسقى الله سبحانه التراب بالماء ﴿ . . . **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى**﴾[2] فأخرَجَ سبحانه الزرع والنخيل وكلَّ أصناف وأزواج النبات . والماء هو أصل الحياة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ . . . **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . .**﴾[3] . ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ . . .**﴾[4] كذلك بالماء أخرج الله سبحانه من الأرض نباتاً غير الزرع ؛ لقوله تعالى : ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ . .**﴾[5] فيدخل في ذلك الإنسان ؛ لأنه غير مستثنى من « . . . . نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ . . .» فالله سبحانه أتم سقي التراب بالماء ، فأنبت الإنسان كما أنبت الزرع ، وكان الإنسان نوعاً من النبات ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**﴾[6] وجاء الحديث : «**أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ ،**

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٢) سورة طه : ٥٣ .

(٣) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٤) سورة هود : ٧ .

(٥) سورة الأنعام : ٩٩ .

(٦) سورة نوح : ١٧ .

فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ أَبِيكُمْ آدَمَ»[1] . فالعاقل من الناس هو مَن لا يَنسى أصلَهُ الذي بَدأَ من طينة تَمَّ تَعفينُها وتَخميرُها ﴿ . . . **مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾[2] ، فسَرَت فيها الحياة بالروح الحيواني ، فخَرَج منها هذا النباتُ الإنساني كخروج الزرع من الارض ، ثُمَّ أكرَمَهُ اللهُ ونَفَخَ فيه من رُوحِه العلوي لتكوين النفس العاقلة . وأهَّل الله الإنسان لخلافته في المُلك والمَلكوت ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ . . .**﴾[3] ، وذلك لما نفخ فيه من روحه ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . .**﴾[4] . وهذا مما يؤكد أن الأرض هي مركز الكون ، وإلا لما كان هذا الاهتمام الإلهي بجعل خليفته منها وفيها ، ورُسُله وكُتُبه ، وَوَضَعَ الميزان للحياة الأخرى التي ستُقام على هذه الأرض بعد إجراء التعديل عليها ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ . . .**﴾[5] . ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ . . .**﴾[6] فهي الأساس للحياة الأخرى ﴿ . . . **وَجَنَّةٍ**

---

(١) حلية الأولياء .

(٢) سورة الحجر : ٢٦ .

(٣) سورة فاطر : ٣٩ .

(٤) سورة الحجر : ٢٩ .

(٥) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٦) سورة الزمر : ٦٩ .

عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ . . .﴾[1] . ففي الجنة لا يوجد ما يمنع الإنسان من التحرك بين السماوات والأرض بذاته أو بوسائل ، فإنَّ السماء جزءٌ من عَرض الجنة ، لأن السماوات والأرض لا يَنفَصلان عن بعضهما في الحياة الأخرى ، وليس كحالهما الآن ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاءَ فَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ﴾**[2] . ويتم التبديل للأرض والسماوات مع بقاء أسمائهما فالدار الآخرة كما قال تعالى ﴿ . . . **لَهيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**[3] لذلك نجد التعبير القرآني يقول مرة ﴿ . . . **وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ . . .﴾**[4] وتارةً يقول ﴿ . . . **وَجَنَّةً عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . . .﴾**[5] وليس للسماء فضل أو رفعة على الأرض . ولقد جهل من أفتى بأن الله في السماء ؛ لعجزه عن الإجابة إذا سُئِل أين كان قبل خلق السماء! كما يلزمه أن يقول «الكرسي أكبر» بدلاً من «الله أكبر» لأن الكرسي وسع السماوات والأرض! ولا يقول بذلك

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ .

(٢) سورة الزمر : ٧٤ .

(٣) سورة العنكبوت : ٦٤ .

(٤) سورة آل عمران : ١٣٣ .

(٥) سورة الحديد : ٢١ .

عاقل . و.. "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ"(١).

فالله هو العلي بذاته لا بمخلوقاته ، ولا بِجِهَةٍ مُحَدَّدة .

(١) مسلم .

حيرة... وأسئلة

قد يُشكل على الإنسان أن ما يجري على الأرض من اختلاف المناخ هو من تأثير الأجرام السماوية . فكما يقولون إن حجم الأرض بالنسبة لحجم الشمس هو جزء من مائة ونيف وستين جزءاً تقريباً ، فإن سقوط حرارة الشمس يجب أن يُغطي جميع الأرض دونٍ استثناء جزء منها . فكيف يُقال إن تأثير حرارة الشمس قد ينحصر في اوقات معينة في مدار الجدي أو السرطان دون باقي الأرض لتكوين الشتاء والصيف؟ وكيف تكون المناطق الاستوائية حارة جداً في نفس الوقت الذي يكون فيه القطب مُتَجَمِّداً؟ فهل ضوء الشمس يختلف عن حرارتها؟ وإذا كان ضوؤها هو حرارتها ، فلمذا لا يذوب الثلج الذي في القطب ، الذي يكون ضوءالشمس مسلطاً عليه أشهُرَ عديدة؟ . ثم لمذا يكون باطن الأرض أكثر حرارة من ظاهرها إذا كانت الحرارة تصل إليها من الشمس؟ أوَ لَيس سطحها هو المعرّض لتلقي الحرارة أولًا إن كانت آتيه من الشمس وتكون رؤوس الجبال أشد حراً؟ فما بالها يغطيها الثلج؟ لكن كلما غاص الإنسان إلى داخل الأرض كانت الحرارة أكثر ؛ وإن البراكين

لتثور من باطِن الأرض ﴿ . . **فَإِذَا هِيَ تَمُورُ**﴾[1] .

ثم إن جرم الشمس يُرى في الأرض بحجم أكبر عند الشروق والغروب ، لا كباقي النهار ، فهل هناك منً المسافة ما يمكن أن يؤثر على هذه الرؤية؟ والغريب في الأمر أنه حينما يُرى حجمها أصغر تكون الحرارة أشد وحينما يُرى حجمها أكبر تقل الحرارة ، ويصغر حجم الشمس إذا خرج الإنسان عن الغلاف المحيط بالأرض ، ويصير حجمها مثل حجم أي نجم من نجوم السماء .!! فما الذي يجعلها تظهر لمن هو على سطح الأرض بحجم أكبر؟ وإذا افترضنا أنه الأوزون ، فلِمَ لا يُؤَثِّر على رؤيةِ بقيةِ النجوم إذاً؟

وإذا كان هو محيطاً بالأرض فلماذا إذن اختلاف رؤية حجمها عند الشروق والغروب وفي أثناء النهار؟

وإذا كان الضوء الذي يأتي إلى الأرض هو من الشمس ، فينبغي أن يكون ما بينها وما بين الشمس مضيئاً ، ليس ظلاماً دامساً كما هو الحال!! وكذلك يجب أن يكون حاراً إلى أن يصل الأرض! لكن كلما صعد الإنسان فوق سطح الأرض نحو الشمس ، ازداد البرد بدرجة يصعُب تحمُّلها ، وظلمةٌ تنعدم فيها الرؤية!!

يلاحظ أن المرء إذا عكس ضوء الشمس بمرآة ، فإن الضوء المنعكس تكون معه حرارة ، وهذا قد يدل على أن السطح

---

(١) سورة الملك : ١٦ .

العاكس يعكس كل ما يقع عليه . وإذا اعتبرنا أن القمر سطح عاكس لما يأتي إليه من الشمس ، فيجب أن يكون ما يعكسه من ضوء على الأرض مصحوباً بحرارة . كما يجب أن يضيء كل جسم يكون بينه وبين الأرض ؛ ولكننا لم نر ذلك . . .!

القمر
منازل القمر

يُلاحَظ في القمر تأثير عجيب على الأرض . فإنه إذا كان في زيادة النور ، تبدأ البحار في المد ؛ أي تظهر زيادة في مياه البحار ، حتى يبلغ مداه ليلة البدر . فهل ذلك من تأثير انعكاس ضوء الشمس منه على الأرض؟ ومن أين جاءت زيادة المياه؟ ومن العجيب أيضاً أن النبات إذا زُرِعَ والقمر في زيادة النور ، أسرع نموه واكتمل وأثمر ؛ ولا يفلح الزرع إذا كان في آخر الشهر العربي . فالرطوبة في الأرض تزداد بازدياد نور القمر حتى إن الإنسان تكون قوة الدم عنده في ذروتها في منتصف الشهر ، وقد يصنف الإنسان فيها من أصحاب مرض الدم – ولكنه أمر عارض – لذلك حبذ المعلم صلى الله وبارك عليه وآله صيام الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر لتفادي غليان الدم . وحبذ الحجامة في السابع عشر من الشهر لاستقامة الدم بعد غليانه في الأيام البيض . وجاء الحديث أن الحجامة إذا كانت في السابع عشر من الشهر ووافق ذلك اليوم الثلاثاء كانت شفاءً[1] ، وهذا يدل

(١) سنن ابن ماجة .

على أن هناك من الأعمال ما يُحَبَّذ وما لا يحبذ عمله في أيام محددة ، كالأربعاء آخر الشهر فقد جاء فيها أنها «**يوم نحس مستمر**»[1] وقد أهلك الله قوم عاد في ﴿ . . . **أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ** . . .﴾[2] ، وعلم الوقت للعارفين منه نصيب ، وهو من علوم صاحب الوقت عليه السلام . ويُرى تراجع البحار والجزر حينما يبدأ القمر في نقصان نوره . وإلى أين تذهب المياه؟ والتساؤل هو ما علاقة انعكاس ضوء الشمس من القمر بما يجري على كوكب الأرض من زيادة الرطوبة ونقصانها؟!

قال تعالى : ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾[3] وقال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[4] فما شأن منازل القمر في هذه الحياة وعلاقتها بالإنسان؟ تعالى الله أن يخلق شيئاً عبثاً ، فهل هي للتدبر والحساب فقط ، أم هناك أمور في حياتنا تتعلق بها؟ قد تجد من يهزأ بك إذا نسبت حدوث أمور في حياتنا بقدرة الله حين ينزل القمر في هذه المنازل ، وقد يتعدى عليك بعضهم بالسب والشتم ﴿**وَإِذَا تُتْلَى**

---

(١) الدر المنثور للسيوطي .

(٢) سورة فصلت : ١٦ .

(٣) سورة يس : ٣٩ .

(٤) سورة يونس : ٥ .

عَلَيْـهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات تَعْـرِفُ فِي وُجُـوهِ الَّذِينَ كَـفَـرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْـهِمْ آيَاتِنَا . . .﴾[1] ولكن العـالِم الذي يريد الخيـر للناس لا يبـالي بما يلاقي ، قُـدوَته في ذلك رسل الله صلوات الله عليـهم ومـا جرى لـهم . . **﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . .﴾**[2] كـما أن الأمر يَتَعَلَّق بِتَدَبُّرٍ في كـتـاب الله ، وهو أمـر يوجـبـه على أنفـسـهـم أهل القلوب العـرفـانيـة الطاهرة ، وينكره أولئك الذين على قلوبهـم أقفـالهـا ، والذين يقـولون **﴿ . . قُلُوبُنَا غُلْفٌ . . .﴾**[3] على الرغـم مما يرون من تأثيـر القـمـر في ميـاه البـحار دون سـبب مـرئي مـحسـوس . فالعارفون لا يكتمون علماً يفيد النـاس عَمَّن يطلبه ، التزاماً بما حث عليـه المعلم صلى الله وبارك عليـه وعلى آله . وإذا بيّن العـــارف مـــا يُتلى من آية **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْـــهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ . . .﴾**[4] على واقع هذا الكون وأثرها على حياة الإنسان بما يفتح الله عليه فيها من علم اختَصَّهُ الله به -لأنّ العلم ليس هو المسطور فقط- **﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . . .﴾**[5] ، ثارت ثائرة أهل العقول المتحجرة ، أهل الجمود

---

(١) سورة الحج : ٧٢ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠ .

(٣) سورة البقرة : ٨٨ .

(٤) سورة سبأ : ٤٣ .

(٥) سورة العنكبوت : ٤٩ .

العلمي ، الذين يقولون ﴿ . . . **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾[1] ، الذين يرفضون أن يكون لله فيض من علم على أحد من خَلقه بعد السلف ﴿ . . . **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ**﴾[2] ، فكل من جاءَهُم بِعلم فيه تَبيينٌ لآيات الله لَم يأتهم من قَبل ﴿ . . . **قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى . . .**﴾[3] .

قد يقول مَن نَصَّب نفسه في رابطة كبار العلماء الشرعيين : إن علم المنازل هذا لم تجئ به الشريعة . ويصدر فتواه بتحريمه!! فيقال له بأن عليه أن يصدر فتوى بتحريم حساب المد والجزر المرتبط بزيادة نور القمر ونقصانه وهو – فيما يبدو من ظاهره – علم لم تأت به الشريعة ، أي أنه علم محدث . كذلك عليه تحريم علم الأرصاد الذي تقوم عليه حركة الملاحة الجوية والبحرية ، وعلم الفلك الذي يحدد الكسوف والخسوف وهلم جرّا ، فالمجال عنده للتحريم واسع! وليتبعه بعد ذلك بفتوى بالتكفير لمن يعمل به!! .ثم بفتوى للقتل . .!! ويظن أن ذلك هو الاسلام!

تأثير القمر في الحياة بمنازله لا يتقيد إن كان هو في زيادة

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٩ .

(٣) سورة سبأ : ٤٣ .

النور أو في نقصانه . فهو ينزل في كُل ليلةٍ منزلة ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ . . .**﴾[1] ، ولكل منزلة تأثير في حياة الإنسان ، جَهِلَها مَن جَهِلَها وعَلمها مَن عَلمها . وهنا يتم الاتهام بالشعبذة والدجل من أهل الإنكار لمن يقول بذلك . ولكننا نقول لمن يشكّ في ذلك : أرقب القمر ليلة منزلة الهنعة ، واسقِ مَن شئت دواءً مسهلاً ، وانظر ماذا ترى! لن يكون لدوائك تأثير مطلقاً ؛ وذلك لسر قدّره الله حين نزول القمر منزلة الهنعة ، وهي المنزلة التي يكون فيها جسم الإنسان في أقوى حالاته!! وليس هذا كل ما يتعلق بما قدَّرَه الله تعالى في هذه المنزلة ، بل هو من بعض تأثيراتها .

(١) سورة يس : ٣٩ .

تبدلات الأهلة

قال تعالى : ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّه اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ . . .**﴾[1] والشهرُ جزءٌ من اثني عشر جزءاً من تقسيم السَّنَة ، والأَهِلَّةُ تُحَدِّدُ بدايات المواقيت في الشهور ، فالشهورُ مرتبطةً بالتقويم الشمسي وليس بظهور الأَهِلَّة . وقَد كان ظهورُ الأهِلَّة في الشهور يشكِّل للعرب في الجاهلية ما احتاج إلى توضيح ، إذ أنَّ الهلال الذي يظهر عندهم في ذي الحِجَّة مثلاً ، فإنه يظهر في السنة التي تليها ناقصاً أحد عشر يوماً . فالشهر عندهم لا يَتَبَدَّل ، ولكن الهلال يتغيَّر في توقيته في الشهر في كل سنة . وكان الحج عندهم في ذي الحجة ؛ فإن ربطوا ذا الحجة بالهلال ، فإنَّ شهر ذي الحجة سيكون في السنة القادمة متقدماً بأحد عشر يوماً . وفي السنة التي تليها باثنين وعشرين يوماً ، ويتأخر كذلك في كل سنة حتى يكون شهر ذي الحجة في مكان شهر ذي القعدة ، ويظل يدور كذلك في غير توقيته الشمسي . لكنهم لم

---

(١) سزرة التوبه : ٣٦ .

يربطوا الشهور بالأهلة ؛ ولذلك كان عندهم فرق هذه الأيام التي يُتَّخَذُ منها النسيء . فالهلال الذي يظهر عندهم في شهر ذي الحجة ليس هو ذا الحجة . ولذلك جاءَ السؤالُ عَن الأهِلَّة مِن الأعرابِ للنبي صلى الله وبارك عليه وآله ، كما قال تعالى في القرآن العظيم ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** . . .﴾[1] ؛ فالأَهِلَّة تُحَدِّد في الشهور مواقيت بدءِ بعض الأعمال والعبادات مثل الحج والصيام . وكانت الشهور العربية – وليس الأهِلَّة – تحمل في الجاهلية نفس الأسماء الموجودة اليوم حيث سُمِّيَ شَهْرا جمادى الأولى والآخرة ، وهما الشهران الخامس والسادس ، لوقوعهما في فصل الشتاء دائماً حيث يَجمُد الماءُ في بُرجِ القوس والجدي ، وبنهايتهما نهاية البرد . يقول لبيد في مُعَلَّقَتِه :

حَتَّى إذا سَلخا جُمادى سِتَّةً
جَزَآ فطال صيامُه وصيامها

يُشيرُ إلى جمادى الآخرة بأنه السادس «جمادي سِتَّةً» ، وبعد انسلاخِه (الذي هو نهاية البرد) يأتي شهر رجب وشعبان –ويُطلَق عليهما «الربيع الثاني» عند العرب لوقوعهما بين الشتاء والصيف مع بقاءِ اسميهما– وتكتفي فيهما الإبل بأكل العشب الأخضر –الجزؤ– عن الماء لذا يقول لبيد : «جَزَآ فطال صيامه وصيامها» . ثم يأتي شهر رمضان في بداية فصل

(١) سورة البقرة : ١٨٩ .

الصيف ؛ وسُمِّيَ شهر رمضان ليحمل اسم الرمضاء ؛ لوقوعه في بداية هذا الفصل ، ثم شهر شوال –قالوا : لأن الإبل تشول بأذنابها فيه من الذبان– ويشتد الحر في شهري ذي القعدة وذي الحجة الذي يناسبه لبس الإحرام ، وتبدأ بعده أيام النسيء الإحدى عشر ، ليبدأ بعدها شهر محرم الذي هو أول الشهور العربية ، وهو يوافق الشهر السابع من الشهور الافرنجية . وتبدأ الأمطار في شهري مُحَرَّم وصَفَر إلى بداية شهر ربيع . ويكون في شهري ربيع الأول والثاني –وهو فصل الربيع الأول– نضج الثمار ، وهو وقت خروج الرطب[1] وذلك حين تكون الشمس في برج الميزان والعقرب . واستَمرَّ التقويمُ بالشهور الشمسية إلى عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حيث أحال التقويم من الشمسي إلى القمري الذي يكون العام فيه أقل بأحد عشر يوماً . وهذه الأيام هي التي كان يُتَّخَذُ منها النسيء المذكور في القرآن قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهِ . . .**﴾[2] ، وكان الكفار يقدمونها أو يأخرونها في كل عام ، حتى يستطيعوا تمديد أو تقليل دخول شهر محرم الحرام من أجل الحروب بينهم . وأصبحت الشهور منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب تدور مع الأهِلَّةِ ، فيجيء شهر جمادى

(١) التحرير والتنوير .

(٢) سورة التوبة : ٣٧ .

في الصيف أحياناً ويجيء شهر ربيع في الخريف أحياناً ، وأصبح لا وجود لأيام النسئ التي في كتاب الله ، بعد أن صار التقويم قمرياً منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

القمر والبشر

منازل القمر ثمان وعشرون -عدد حروف المعجم- منها أربعة عشر نورانية وأربعة عشر ظلمانية . وقيل : الحروف النورانية هي التي في أوائل سور القرآن ، فإذا حَذَفْتَ المكرر منها وجدتها أربعة عشر حرفاً ، وفي ذلك إشارة إلى علم يصعب تسطيره في قرطاس . وكذلك نزول القمر في البروج ، له تأثير يعرِفه أهل العِلم . فقد جاء عنهم النهي عن السفر والقمر في برج العقرب ، وقد سُئل علي عليه السلام لما أراد لقاء الخوارج : «**أتلقاهم والقمر في العقرب؟**» ، فلم يُنكر تأثير القمر وهو في برج العقرب ، ولكنه أحال النحس على الأعداء ، ويظهر ذلك في رده على السؤال بقوله : «فأين قمرهم»[1] أي أن القمر في برج العقرب أيضاً بالنسبة إليهم ، ويجري تأثيره بالنَّحس عليهم وليس عليه ؛ لأنه على الحق . . . ﴿**قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا . . .**﴾[2] ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ**

(١) تفسير القرطبي .

(٢) سورة الإسراء : ١٠٧ .

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . .﴾[1] .

والشمس في حركتها أو حركة المنازل حولها تبقى في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً ، عدا منزلة واحدة تظلّ فيها أربعة عشر يوماً -قيل هي الجبهة- لتُكمِل دورتها السنويَّة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وكُل منزلة تَحلُّ فيها الشمسُ تُسَمى «نَوءاً» أو «عينة» ، ويختلِف فيها ظهور حشرات الأرض ، فيظهر في كل واحدة منها نوع من الحشرات ، حتى إن الحدأ في السماء يظهر في أول يوم تكون فيه الشمس بمنزلة الجبهة .

هناك كثير من الآيات ينكرها الظلمانيون ؛ لعدم معرفة كيفية حدوثها لاستغراقهم في الأسباب الموصلة إلى النتائج ، والتي إن عُدِمَت عندهم أنكروا ما يقال لهم من سبب موصل إليها إن كانَ غير تلك الأسباب التي يعرفونها ، قال تعالى : **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِه . . .﴾**[2] وذلك شأن الكافرين **﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾**[3] .

فالعالم العاقل إذا عجز عن إدراك الكيفية الموصلة إلى نتيجة ما ، عليه أن يؤمن بما يقال في كيفية حدوثها التي لا يعلمها ، وعليه البحث حتى يتأكد من صحة ما قيل له أو عدم صحته ، وإن لم يَقُده بحثُه إلى شيء فعليه بالإيمان . وهناك

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٩ .

(٢) سورة يونس : ٣٩ .

(٣) سورة الإنشقاق : ٢٢ .

كثير من الظواهر يقف العقل عندها حائراً ، وقد لا يجد لها تبريراً ولا معرفة بكيفية حدوثها .

ففي النبات مثلاً كوجود البطيخ في غرفة بها عجين فإنه يفسد العجين ولو لم يتماسا . والحبة السوداء وهي حبة البركة بعد زراعتها إذا خاطَبْتَها ووَعَدتَها بالسقيا تنمو وإن لم تسقها . وفي الحشرات كجمود العقرب أمام الوزغ حتى يلتهمها . وفي الإنسان فإن الحائض إذا لمست الإناء الذي فيه اللبن الحليب – وإن لم تمس الحليب نفسه– فإنه يفسد . وهناك الدرع الواقي الذي يراه أهل البصائر والذي يحمي لابسه من العقارب والحيَّات ، وهو حجاب ساتر ولكنه مستور لا يراه الظلمانيون **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾**[1] وهو الكيفية التي تحمي من ذات السموم القاتلة ، ولكنها كيفية لا يتوصل إليها عن طريق المختبرات العلمية . إنه آية من كتاب الله وهو قول الله تعالى : **﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾**[2] **﴿ . . . وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾**[3] وهناك ما لا حصر له مما يعلمه العارفون المتدبرون لكتاب الله ، ولكن كيف يبدونه وقد اتُّهِم قبلهم الرُّسُلُ بالسحر! فتجد

---

(١) سورة الإسراء : ٤٥ .

(٢) سورة الصافات : ٧٩ .

(٣) سورة يوسف : ١٠٥ .

التـزامَـهم في بَثِّ العلم يكاد يَنحـصـر في مَن يأنَسـون فـيـه الاستيعاب ، لأنه وكما قال ابن مسعود : «**مَا أَنْتَ بِمُحَدِّث قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**»[١] . فإذاً لُسعَ أو لُدِغَ أحد الناس وكان هناك أحد العارفين فإنه لن يقول لأهله : «أنا لـها» إذا لم يطلبوا منه العـلاج ؛ ذلك مع علمـه بأن علاج الملدوغ لا يستغرق عنده وقتاً . وهذا عمل بالحديث « . . **إذا اسـتنصـحك فـانصح له . . .**»[٢] ، لأن الشـرط في إعطاء النصح هو طلبه . وللناس الحرية في طلب العلاج من العـارفين أو غـيـرهم بحـسب إيمانهم . وقَـد يجـبـر الاضطرار الناس على القـبـول ﴿**فَـإِذَا مَسَّ الْإِنْسَـانَ ضُـرٌّ دَعَـانَا . . .**﴾[٣] ، وإذا ألجأ الاضطرار العبـد إلى الله ، فـإن الله حليم يتجـاوز عن سـيـئـاته ويكشف السـوء ؛ لأن في الاضطرار نفي للكبْر ، قـال تعـالى : ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ . . .**﴾[٤] ، ولا تنس أنّ المؤمنين سـتـار القـدرة ، وبهم يفـعل الله مـا يشـاء ، كإحياء عيسى عليه السلام للميت ، قال تعالى ﴿ . . . **يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ . . .**﴾[٥] . سُـئل أحـد العـارفين عن الاسم

---

(١) مسلم .

(٢) مسلم .

(٣) سورة الزمر : ٤٩ .

(٤) سورة النمل : ٦٢ .

(٥) سورة التوبة : ١٤ .

الأعظم ، فأشار إلى هذه الآية ، وقال : هو الذي تدعو به عند الاضطرار ، فإن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه . والدعاء قد يكون لنفسك أو لغيرك ، وقد تدعو أنت لنفسك أو تطلب من غيرك ليستغفر لك ذنبك ؛ فقد طلب إخوة يوسف من أبيهم ليستغفر لهم ذنوبهم ﴿ . . . **يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** . . .﴾[1] ، وقد قيل : «**ادعوا الله بألسنَة لَم تعصوه بها**» ، فما عصى إنسانٌ بلسانٍ غَيره . وذُكر أن صفوان بن عبد الله كان ذاهباً للحج ، فقالت له أم الدرداء : «**فادع الله لنا بخير**»[2] .

ذهب كثير من الفقهاء إلى الإسراع بتكفير الآخرين لفهم خاطئ من قبلهم ، فقد أصدروا فتوى بتكفير من يقول : «أمطرنا بنوء كذا» وكَفَّروا كذلك من يقول «أمطرنا في نوء كذا» بينما هذا الأخير يشير إلى الزمن الذي تم فيه وقع المطر ، إذ لا بد أن ينزل المطر في وقت محدد . فالإشارة إلى الوقت الذي نزل فيه المطر ليس له علاقة بالكفر والإسلام ، ولا يعني أن الذي يقول بذلك ينكر قدرة الله في إنزال المطر . كذلك مَن يشير إلى حدوث أشياء في أوقات محددة ، كمنازل القمر مثلاً ، فلا يعني ذلك أنه ينكر قدرة الله في إحداث ذلك الفعل في ذلك الوقت ، بل يدل على الإيمان بما جعله سبحانه من أسرار الوقت

---

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة .

في مُلكه ؛ لإحداث فعله في هذا الكون الفسيح . وحدوث الأفعال لا بد أن تتم في زمن محدد ، والزمن مرتبط بالشمس والقمر ، كحدوث المد والجزر وارتباطه بحركة القمر .

نجد أهمية القمر بالنسبة للحياة في الأرض كبيرة ؛ لعلاقته بالرطوبة التي هي أساس الحياة ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ . . **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** . . .﴾[1] ولكن الاستثناء وارد من الكل هنا ؛ لأنه سبحانه خلق أحياء أخرى من غير الماء ، قال تعالى : ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾[2] وخلق الله سبحانه وتعالى الملائكة وهي أجسام نورانية ، فهي مخلوقات حية مستثناة من الخلق الذي ذكره الله سبحانه بأنه من الماء الذي هو الأهم . لكننا إذا دققنا في الأمر وجدنا أن الماء يتكون من ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين ، فإذا فُصِلتا كانت كل واحدة منهما عنصراً نارياً ، فإذا كان خلق الجان من أحدهما فقد خلق من أحد مكونات الماء . وقد يُفهم من قول الله تعالى : ﴿**وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ**﴾[3] الإشارة إلى العنصرين الذين يتكون منهما ماء البحر ، فإذا انفَصَلا كانا ناراً والله أعلم . ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ**﴾[4] .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٢) سورة الحجر : ٢٧ .

(٣) سورة الطور : ٦ .

(٤) سورة الانفطار : ٣ .

هل للقمر تأثير على الأحياء المخلوقة من غير الماء؟ قد تتعذر الإجابة على هذا السؤال ، ولكن يُلاحظ أنّ المخلوقات الحية التي خلقها الله سبحانه من غير الماء كالجن والملائكة يكون ظهورها في الليل ، إلا في حالات استثنائية كنزول الملائكة في معركة بدر ؛ وذلك يعني أنّ قلة الضوء أو النور يجعل لهذه المخلوقات انتشاراً وتسلطاً ، ويفهم ذلك من تحذير النبي صلى الله وبارك عليه وآله من الوقت الذي قبل غروب الشمس ، فقد جاء عنه قوله : « . . . **إنها ساعة ينتشر فيها الشياطين**»[1] ، لذلك يُستَحب فيه السكون والتسبيح وعدم الغفلة . والخسوف والكسوف كذلك تُحدِث ظلاماً ، وشُرِع فيها السكون والصلاة . ولذلك فإنّ الإنسان الذي يعمر جزءاً من ليله بالذكر والصلاة ، فإنّه يرتفع من ترابيته إلى روحانيته ، ويكون ممن قال فيهم سبحانه : ﴿**كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾[2] وهم أوتاد الأرض وأفراد الرجال الذين تتنزّل عليهم الملائكة ، وتخشاهم الجن إلا الصالحين منهم .

---

(١) المعجم الكبير للطبراني .

(٢) سورة الذاريات : ١٧ .

سُنَّة المعارضة

إن الله أراد واصطفى مِن الخَلق مَن أَحَبّ ، وأرسلهم لتبيين سبل الرشاد للعباد . فهم كلماته التامة ومصابيح الدجى وسفن النجاة ، ولا شُغل لَهُم بغيره . أراد الله أيضاً ، وهو جامع الأضداد سبحانه ، أن يكون هناك معارض في مقابل هُداه ، وجعله مِن المُنظَرين إلى يوم الوقت المعلوم ، وأعطاه التَّصرُّف فيمن يتبعه ، وقال له : ﴿ . . **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ** . .﴾[1] وجعل الله ذلك سنّة في خلقه ، فلا بدّ من المعارضة لكلّ هاد مستنير يبين الحق للناس ، ويرشدهم إلى سبيل النجاة ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ** . . .﴾[2] وشيطان الإنس أعظم خطراً من شيطان الجن ، ولذلك جاء ذكره أولاً ؛ لأنّه إنسان شيطان وتتعامل معه كإنسان ولا تعلم حقيقته . وشيطان الجن لا يرى

(١) سورة الإسراء : ٦٤ .

(٢) سورة الأنعام : ١١٢ .

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . .﴾[1] فانظر إلى خطر تعاملك مع إنسان هو في حقيقته شيطان مجسد ، وقد يكون من أقربائك . وتنحصر أفعاله في الأذى والضرر ، وهذا النوع كثير في المجتمعات ، ولكن لا يعرفهم إلا أولو البصائر ويُحَذِّرون منهم ، ولكن لا يشيرون إليهم . أما شيطان الجن فإنه يجري من الإنسان مجرى الدم من العروق ، وهذا يعني أنَّ الإنسان إذا لَمْ يَتَحَرَّ الحلالَ في كَسبِه للمالِ وفي أكلِه ومَشرَبِه ومَلبَسِه ، فإنه يُربي القوى الشيطانية فيه ، حتى يصير هو نفسه من شياطين الإنس .

نجد أن من مصائب النفس البشرية دعوى العلم ، وهي الإشارة من المرء للآخرين إلى نفسه بأنه عالم ، وهي الهلاك بعينه حتى لو كان صاحبها عالماً فيما يدعيه ، فإن زينة العلم التواضع والأدب وعدم العجب . وانظُر إلى إبليس فإنه آمن بأن الله خالقه حيث قال : ﴿ . . . خَلَقْتَنِي مِن نَّار . . .﴾[2] . . . وأنه ربه ، وسأله ولم يسأل غيره ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي . . .﴾[3] ، وآمن باليوم الآخر ﴿ . . . فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ، وحلف بالله ولم يحلف بغيره ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4]

---

(١) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٢) سورة ص : ٧٦ .

(٣) سورة ص : ٧٩ .

(٤) سورة ص : ٨٢ .

واستثنى العباد المُخلَصين ﴿**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1] . وفوق هذا كله فهو يعلم كُل الخير الذي خلقه الله ؛ ليتمكن من منع الناس إلى الوصول إليه ، كما أنه يعلم كل الشر الذي خلقه الله ليدل الناس عليه . . فهل ترك من العِلم شيئاً؟ . لَمْ تَكُنْ مُصيبَته إلا أنه عصى الله بفتوى من عنده ، حينما سألَه تعالى عن سَبَب عصيانه . . . ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ**﴾[2] فكان ردُّ إبليس : ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[3] . ورغم أنَّه مُصيب في قوله : ﴿ . . . **خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ إلا أن علمه هذا جاء فاقداً الأدب والتواضع ، ومُظهِراً العُجب والكبرياء بعلمه الذي أصدَرَ بسببه فتواه هذه بأنه : ﴿ . . . **خَيْرٌ مِّنْهُ** . . .﴾ فصدر عليه الحكم باللعن إلى يوم الدين . . يُلاحَظ في هذه الآيات أنَّ إبليس سألَ الله أن يُنظِره إلى «يوم يبعثون» ، وهو يوم يَحشُرُ اللهُ الناسَ للحساب بعد نهاية الحياة الدنيا ، بينما لَمْ يَكُنْ هنالك بَشَرٌ غَير آدم ، فَمَن هُم الذين يُبعَثون؟

هنا نَجِدُ في طَلَبِ إبليس هذا إشارةً لِعلمِه بوجود الحياة

---

(١) سورة ص : ٨٣ .

(٢) سورة ص : ٧٥ .

(٣) سورة ص : ٧٦ .

الدنيا ومن فيها من الناس المخلَصين وغير المخلَصين ، وعلمه بنهاية الخَلق والبَعث . وكل ذلك قبل خروج آدم مِن الجنّة . فأنظَرَهُ اللهُ إلى «يوم الوقت المَعلوم» الذي هو يوم الدين . كما أنَّ إبليس حَلَفَ بعزَّة الله لغواية الخلق ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[1] ، وأنْ يأتيهم من بين أيديهم ومن خَلفهم وعَن أيمانهم وعَن شمائلهم ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[2] . وقد استثنى إبليس العبادَ المُخلَصين من الغوايَة ﴿**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[3] ، هذا كله ولا يوجَد إنسانٌ حينها غير آدم . فهل كان ذلك لعلم سابق عند إبليس بما يكون؟ وهل كان يعلم بحتمية خروج آدم من الجنة ، ووجود الحياة الدنيا وإعمار الأرض بذرية آدم؟ قال تعالى ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[4] ونَجِد أنَّ الله سبحانه وتعالى

---

(١) سورة صـ : ٨٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٦-١٧ .

(٣) سورة الحجر : ٤٠ .

(٤) سورة الإسراء : ٦١-٦٢ .

قـد توَعَّـدَه بأن يملأ النار منه ومـمَّن تَبـعَـه ﴿**قَـالَ اذْهَبْ فَـمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا**﴾[1] . هذا كله ولَم تَكُن لأدم ذُرِّيَّة بَعد!

(١) سورة الإسراء : ٦٣ .

العصيان بفتوى..!

عَصَى آدم ربه ﴿ . . . **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ﴾[1] ولكنه لم يطرده سبحانه ولم يلعَنه ، بل أمهَلَه ليستغفر ، فَغَفَرَ له وكان ذلك هو العدل بعينه ، لا كما يقول أصحاب القلوب الصدئة ، ذلك لأنَّ عصيان آدم كان نتيجة لضعف حيث وصَفه الله تعالى بقوله ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**﴾[2] وقد كان يرغب في حياة الخلد . يلاحظ أنّ آدم كان في الجنة ، وفي الجنة الخُلد والمُلك الذي لا يبلى! فَوَسوَسَ إليه الشيطان ﴿ . . . **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذه الشَّجَرَة إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾[3] . فَكيف تَأَثَّرَ آدم بِوَسوَسَةِ الشيطان وهو في الجنة التي فيها الخلود وهو الذي سَجَدَت له الملائكة ، وكيف يرغب أن يكون ضِمن مَن سَجَدوا له؟ ويرغب في الخلود وهو في دار الخلد؟

نَجِد أنّ تأثُّر آدم بوسوسة الشيطان له بأن يكون من

---

(١) سورة طه : ١٢١ .

(٢) سورة طه : ١١٥ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٠ .

الخالدين ، وأن يكون له مُلك لا يبلى -وهي الحال التي كان فيها آدم- إنما كان لنسيان آدم عليه السلام لعهد الله له بحالته هذه حين أسكَنَه الجنة وقال له ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾[1] كما حَذَّرَه تعالى من وسوسة الشيطان هذه وقال له ﴿**. . . إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾[2] ولكن آدم عليه السلام نسي ذلك ، ونسي أمر الله له بأن لا يَقرب الشجرة . ويتعجّب بعض الناس كيف تَمَّت الوسوسة لآدم وهو في الجنة وإبليس قد طُرِد منها! ويرى بعضهم أنّ إبليس هو الذي قام بالوسوسة لآدم لأن الله حذر آدم منه ، والواضح أنّ الذي وسوس لآدم هو الشيطان . فإبليس هو أبو الجن كما آدم أبو البشر ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، ومنهم الكافرون وهم الشياطين من ذرية إبليس . قال تعالى ﴿**. . . وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . . .**﴾[3] فإن قيل كيف دخل الشيطان إلى الجنة يقال إنّ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله قال «**إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**»[4] لأن ابليس لم يدخل الجنة بعد أن لعنه الله .

---

(١) سورة طه : ١١٨-١١٩ .

(٢) سورة طه : ١١٧ .

(٣) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٤) البخاري .

نجد أن الأمر صدر مباشرةً لآدم ولزوجه ﴿ . . . **وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ** . . .﴾[1] بينما الأمر لإبليس لم يكُن مُباشراً له ، بل كان خاصاً للملائكة ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** . . .﴾[2] وإبليس لَم يكُن من الملائكة بل كان من الجن ، قال تعالى : ﴿ . . . **فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** . . .﴾ وحينما سئل عن عدم سجوده ، لم يعتذر بأنه ليس من الملائكة – وكان يمكن أن يكون ذلك مخرجاً له – بل أقر بأنَّ أمرَ السجود يشمله ، ولكنه رفض الامتثال اعتماداً على علمه ﴿ . . . **خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ وأصدر فتواه بذلك ، وإصدار الفتوى أمام الملك العليم غايةٍ في سوء الأدب ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ** . . .﴾ . فكان عصيانه بسبب فتواه ورؤية ما عنده من العلم ، ولَم يكُن عَن ضَعف ، كما كان عصيان آدم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ . . . **وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾[3] فكان الضعف رحمة به ، فمن عرف ذلك ولزم فقد استمطر الرحمة . فالله سبحانه عندما سَألَ آدَم عَن سَبَب عصيانه لَمْ يُجبْ آدم بفَتوى علم عنده ، بَل أقَرَّ بذَنبه وطَلَبَ المَغفِرَة ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا**

---

(١) سورة البقرة : ٣٥ .

(٢) سورة الكهف : ٥٠ .

(٣) سورة النساء : ٢٨ .

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1] ، فكان لَهُ ذلك . . ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2] وكانت توبة الله على آدم رغم عصيانه ﴿ . . . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[3] . ويُفهم من هذا أن معصية الله لا تمنع اصطفاء الله لفاعلها ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[4] لأنَّه فعّال لما يُريد ولا تَضُرّه مَعصِيَةٌ ولا تنفعه طاعةٌ سبحانه .

وفي زمن موسى عليه السلام كان السامري هو العدو المُعارِض ﴿ . . قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[5] . ولكن لا بد من الوقوف عند قوله تعالى : ﴿ . . فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ . . .﴾ فإنّ من الناس مَن ينسب الفتنة إلى الله ويتخذها عذراً له ، وهذا خلط في المعنى وارتجاج في الفهم ؛ إذ على المرء التدقيق والتبصر . فردُّ الأمر إلى الله لا يكون تبريراً للخطأ ، وقد قال موسى عليه السلام مخاطباً ربه : ﴿ . . إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن

---

(١) سورة الأعراف : ٢٣ .

(٢) سورة البقرة : ٣٧ .

(٣) سورة طه : ١٢١ .

(٤) سورة آل عمران : ٣٣ .

(٥) سورة طه : ٨٥ .

تَشَاءُ . . .﴾[1] . ولا بد من التدبر في كلامه تعالى لقوله ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2] فلن ينفع سلوك النعام ودس الرؤوس في الرمال ، فالله سبحانه حقيقة هو الذي أعطى القدرة للسامري ، ومن قبله لإبليس ، بما يمكن أن يتصرف به ، فهو الفعال لما يريد ، فـ ﴿ . . . إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ . . .﴾[3] لأنه لا حول ولا قوة إلا به . ﴿ . . . قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[4] ولكن لا تظن أنّ في ذلك حجة لك في تبرير الخطأ! . فإنّ موسى عليه السلام لَم يَتَّخذ ردَّ الفتنة إلى الله عذراً ، بل استطرَدَ قائلاً : ﴿ . . . أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾[5] فقد أعطاك الله من القدرة ما يمكن أن تقاوم به كل شر ، بل جعلك خليفة له . ولا يمنعك عدم الحجة في تبرير الخطأ – عند عجزك – من الرجوع إليه ، ولا يدخلك ذلك في القنوط واليأس ﴿ . . . وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾[6] واعلم أن النفس والشيطان هما مصدر الخطأ ،

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٥ .

(٢) سورة محمد : ٢٤ .

(٣) سورة هود : ١٢٣ .

(٤) سورة النساء : ٧٨ .

(٥) سورة الأعراف : ١٥٥ .

(٦) سورة الحجر : ٥٦ .

فلا تجعلهما سبباً لإبعادك عن الله ، بل عليك الفرار منهما إلى الله ، والتماس الرحمة عنده عند حدوث الخطأ منك – فرحمته سبقت غضبه – حتى تكون من خير الناس ؛ إذ لا ملجأ من الله إلا إليه ، قال تعالى : ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ . . .**﴾[1] وقد قيل : «إن النفس والشيطان كلبان من كلاب الله يسوق بهما عبده إليه» . فقد قال المعلم صلى الله وبارك عليه وآله : «**كلّ ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون**»[2] فأحدث التوبة عند كل خطأ ، واعلم ﴿ . . **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ . . .**﴾[3] تكن من التوابين ، أي من خير الناس ، ويحبك الله . ومن أحبّه الله كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يسعى بها ، كما جاء في الحديث . فالله سبحانه ﴿ . . **يُحِبُّ التَّوَّابِينَ . .**﴾[4] وإن كثرت ذنوبهم ، ولَم يَقُل «التائبين» . ومن تحقق في هذا المقام ظهر عليه تجلي اسمه تعالى «التواب» لأنه خليفته وانطبق عليه الحديث . وقد جاء عن بعض العارفين أنه قال : «اللهم إن سيئاتي لا تضرك ، وحسناتي لا تنفعك ، فاغفر لي ما لا يضرك وتقبل مني ما لا ينفعك وأنت أكرم الأكرمين» .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٠ .

(٢) سنن الترمذي .

(٣) سورة النجم : ٣٢ .

(٤) سورة البقرة : ٢٢٢ .

تبشير.. لا تنفير..!

إذا كان الله سبحانه لم يطالب العباد بالعصمة ، فيجب على خليفته أن يتخلق بأخلاقه ، فلا يطالبهم كذلك بالعصمة في تعاملهم معه . فلا تقطع صلتك بصديقك إذا أخطأ أو اختَلَفَ في سلوكه معك ، فإنّ من لا يتجاوز عن خطأ صديقه يحتاج إلى مَلَك يكون له صديقاً لأنَّ البَشَرَ لابُدَّ لَهُم من الاختلاف والخطأ ﴿ . . **وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** . . . ﴾[1] . فعليك ألاَ تزجر صديقك ولا تهجره ، ولا تطلب منه أن يكون معصوماً في تعامله معك ، بل التمس له عذراً إن أخطأ ، فالذي لا يعذر الناس في تعاملهم معه ، فليعلم أنه تنكب طريق من بُعث معلماً ، وفارَقَ ما بُعِثَ به وقطع العلاقة معه في يوم أحوج ما يكون الناس فيه إليه . فقد جاء عنه صلى الله وبارك عليه وآله «**من تُنصِّل إليه فلم يقبل ، لم يرد علي الحوض**»[2] ، ولذلك قال بعض العارفين : «اقبل عذر من يعتذر إليك حتى لو علمت أنه لم يكن صادقاً

---

(١) سورة هود : ١١٨-١١٩ .

(٢) المستدرك على الصحيحين .

في اعتذاره» لأن المطلوب هو الاعتذار ، لا صحة الاعتذار . فاعتذاره يدل على رجوعه عما صدر عنه . فقبول العذر هو التحلي بالأخلاق التي بعث ليتمم مكارمها محمد صلى الله وبارك عليه وآله . قال بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
صَديقَكَ لَمْ تَلْقَ الذي لاَ تُعَاتبُهْ
إِذَا أنْتَ لَمْ تشْربْ مِراراً علَى الْقذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فحدوث الذنوبِ والأخطاءِ مِن العباد أمر لا بد منه ، فإنّ الله لم يخلقهم ملائكة ولم يطالبهم بالعصمة ، بل بالاستغفار عند حدوث الزلل . لذلك فهم يذنبون وهو يغفر لهم وهو العفوّ الغفار ويُحِبُّ العفوَ لعباده ، وقيل : «لو يعلم الناس حب الله للعفو لتقربوا إليه بالمعاصي» لذلك جاء الحديث «**لَوْ لَمْ تُذْنبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْم يُذْنبُونَ فَيَسْتَغْفرُونَ اللَّهَ فَيَغْفر لَهُمْ**»[1] ولولا وجود العباد المذنبين لم يُفهَم قولُه تعالى : ﴿**غَافرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ . . .**﴾[2] ولم يوجد مجال لأسمائه تعالى الغفار والتواب والغفور والرءوف والعفو والحليم والرحيم . قال تعالى ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّـهَ يَجِدِ**

(١) مسلم .

(٢) سورة غافر : ٣ .

اللَّـهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] . وهناك مَن يَسُؤه ذكر المغفرة والتبشير بها ولا يدعو إلا بالتخويف والعقاب! وفي الحديث «**مَن رَوَّع مؤمناً لَمْ يُؤَمِّن الله روعَتَه يوم القيامة**»[2] ، فالدعوة بالتخويف مُخالفَة لما جاء الأمر به في أسلوب الدعوة ، ألا وهو قوله تعالى ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . . .﴾**[3] . وقال صلى الله وبارك عليه وآله «**بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا**»[4] وذلك لقصد التيسير على العباد . وقد ورد أنه قد «**خرج رسول الله في بعض أسفاره فمرّ على رجل جالس عند مقراة له (أي حوض ماء) ، فقال عُمر : يا صاحبَ المَقراة أَوَلَغَتْ السباع الليلة في مَقراتك؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا صاحب المَقراة لا تخبره ، هذا متكلف . . .**»[5] والله سبحانه لا يحب المتكلفين . قال تعالى ﴿ . . **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾**[6] . وكانت دعوته صلى الله وبارك عليه وآله بالتَّحَبُّب لا بالإكراه ؛ قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**حَبِّبُوا**

---

(١) سورة النساء : ١١٠ .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي .

(٣) سورة النحل : ١٢٥ .

(٤) مسلم .

(٥) التحرير والتنوير .

(٦) سورة ص : ٨٦ .

اللَّهَ إِلَى عِبَاده ، يُحِبَّكُمُ اللَّهُ»[1] وقال تعالى ﴿ . . . **وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** . .﴾[2] ، فأسس حرية الاعتقاد ، وبيَّن أنه ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** . . .﴾[3] لأنَّ الدِّينَ أخلاقٌ وتَوَدُّد كما ورد أنّ «**رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس**»[4] .

لا بد من مصادمة الضلال وهدمه بالهدى الإلهي ، فكيف يتصرف الخليفة مع عدوه؟ قال تعالى : ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** . . .﴾[5] وها نحن نعمل يا رب لإرضائك رغم عجزنا عن معرفة حقيقة ما يرضيك ، فإنّ في ذلك حيرة والعدو بالمرصاد يتصيد الأخطاء . وقد جاءنا الأمر في محكم تنزيلك عن هذا العدو ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** . . .﴾[6] فوجب علينا ذلك وأثبتنا العداوة بيننا وبينه ، فإذا بنا نصطدم بواسع علمك في كيفية التعامل مع العدو! إذ تقول يا عظيم الجلال يا كبير يا متعال ﴿ . . **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[7] فتزداد الحيرة

---

(١) المعجم الكبير للطبراني .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٤) شعب الإيمان للبيهقي .

(٥) سورة التوبة : ١٠٥ .

(٦) سورة فاطر : ٦ .

(٧) سورة فصلت : ٣٤ .

عندنا ، فَلَكَم يجهل المرء في التعامل مع العدو! وأين لنا من أخلاق الأنبياء ليكون التعامل مع العدو كذلك؟

لقد كان كليمك موسى الذي اصطنعته لنفسك تعتريه حدة الطبع ، ولكن أخلاق الأنبياء تتجلى فيه في تعامله مع السامري الذي قام بِفِعلٍ تَضيقُ به الأرض وتَخِرّ منهُ الجبالُ هَدّاً ، أضل به القوم ليعبدوا غير الله ، وقال لهم : ﴿ . . **هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى** . . . ﴾[1] . فما كان من موسى عليه السلام إلا أن قام بإزالة آثار فعل السامري وشركه ، وحَرَقَ إلهه المزعوم ، ثم يقول للسامري بما يناسب عظمة أخلاق الأنبياء ﴿ . . **فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ** . . . ﴾[2] هكذا تعامل الرسل مع الإنسان فيما يخص مُعتَقده ودينه – الذي هو بينه وبين ربه – مهما كان عِظَم ما قام به مِن جُرم ، وإن كان ذلك هو الخروج عما جاء به الرسول ، ومحاولة إخراج الناس كذلك من اتّباعه وتحويلهم إلى مُشركين . . ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[3]!! فليت الذين يدَّعون الوصاية على الدين يعتبرون ويَقتَدون بهذا السلوك مع الإنسان!! فإنّ الله سبحانه لَم يَتَّخذ أحداً وكيلاً عنه .

فإن كانت هناك دولة ، وأطلقوا عليها أنها دينية ، فلا يحِقُّ

---

(١) سورة طه : ٨٨ .

(٢) سورة طه : ٩٧ .

(٣) سورة الغاشية : ٢٢ .

لها رغم ذلك أن تتَدَخَّل بالإكراه في مُعتَقَدات الناس وحُرِّياتهم الشَّخصيَّة . فالقَداسَةُ لما جاءَ به الرَّسولُ ولَيست للحُكَّام السِّياسيين ؛ ولا قَداسَةَ للفَهم . فَإنَّ الرُّسُلَ صَلَوات الله عليهم لَمْ يُجبِروا أَحَداً مِن المُشركين أو الكفار على اتِّباعِهم ؛ ولا صاحب دين على ترك دينه والدخول في غيره فلا يَجوزُ ذلك لحاكم . ولا يوجد وكيل عن الله على عباده ولا حتى من رُسُلِه ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾[1] . فإنْ قيل لماذا إذاً تعامَلَ موسى مع هارون بقسوة ، فليُعلم أنَّ هارون لَمْ يَكُنْ عَدواً له ، لذلك لَمْ يَكُنْ تَعامُلُه مَعَه عقاباً لَه ؛ بَل عتاباً بِحِدَّة لأنَّه شريكٌ معه في الرسالة ، فكانَ كأنَّما يُعاتبُ نَفسَه .

ولكن لا تمنعُنا الحَيرَةُ من الدعاء والعمل يارب ، فإنك قلت وقولك الحق : ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . .**﴾[2] وقولك حق ، ووعدك صدق ، ولك الملك ، وهذا عطاؤك لمن حسنت نياتهم .

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

الذِّكر والذّاكِر والمَذكور

لا يمنعنا يا رب جهلنا بمعرفة ما يرضيك – والذي قد يوقعنا في مصائد العدو – من اِلْتماس الوسائل الموصلة إليه ، التي لا تتوفر معرفتها إلا عن طريق مَن بعثتَه مُعَلِّماً وصَلَّيتَ عليه ، وصلاتك قديمة ، فهو نبي منذ القِدَم ، تصلي عليه أنت وملائكتك والحجر والمدر والشجر والحيتان في البحر والسماوات والأرض ومن فيهن ، وكلّ شيء إلا الظلمانيون . وقلت له ﴿ . . . **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** . . .﴾[1] فالذِّكر أمر متضمن في القرآن العظيم ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[2] وهو العِلم لتبيين ما نزل إليهم ، ولا ينفك عنه ؛ إذ القرآن هو العِلم ، والنبي مدينة العِلم ، وأهل الذكر هم أهل القرآن ، وإن شئت قلت : هم أهل العِلم الذي جاء به القرآن ؛ قال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله : « . . . **كتاب الله وعترتي ، وإنهما لن يفترقا** . . .»[3] ، قال

---

(١) سورة النحل : ٤٤ .

(٢) سورة ص : ١ .

(٣) المعجم الصغير للطبراني .

تعالى : ﴿ . . فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ . . .﴾[1] والرسول صلى الله وبارك عليه وآله هو مدينة العلم ، ومدينة العلم هو منبع العلم ؛ قالت عائشة (رضي اللّه عنها) إنَّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله كان «**يذكر الله في كل أحيانه**»[2] وعليه فإن الله ذاكره في كل أحواله لقوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ . . .﴾[3] فهو الذَّاكرُ والمَذكورُ وهو الذِّكر أيضاً ؛ قال تعالى : ﴿ . . ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . .﴾[4] . فبيَّنتَ يا رب لنا بذلك المرجعية ، وألزَمتَنا بالإتباع له فيما فوَّضتَه فيه ، حيث قُلتَ وقولك الحق : ﴿ . . وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا . . .﴾[5] ، فبالتسليم إليه كما أمرت يُلتَمَس الطريق المنجي والسلامة من العدو ، إذ قلت آمراً في محكم تنزيلك تَلَطُّفاً بنا ﴿ . . وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[6] وقد أخطأ الكثيرون في فهمها وظنوا أنها تعني : (وسلموا سلاماً)

---

(١) سورة النحل : ٤٣-٤٤ .

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي .

(٣) سورة البقرة : ١٥٢ .

(٤) سورة الطلاق : ١٠-١١ .

(٥) سورة الحشر : ٧ .

(٦) سورة الأحزاب : ٥٦ .

فأبْعَدوها عن التسليم للمرشد إلى الطريق ﴿**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِه خَبِيرًا**﴾[1] وهو طريق لا نهاية له ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيه**﴾[2] ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾[3] حيث لا نهاية ؛ لأنه طريق العلم بكافة فروعه ﴿ . . **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ . . .**﴾[4] والمخلوقات هي كلمات الله ، والرسل هم الكلمات التامات . فحوى الكتاب كل الكلمات التي لا تُحصى وما لا يتناهى وجوده ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**﴾[5] ، وذلك لأن كل ذرة من ذرات ماء البحر هي كلمة ، فلا تكتُب غير نفسها . فالمدادُ ذراتٌ تكتُب نفسها ولا تزيد ﴿ . . **وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِه مَدَداً**﴾[6] . ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ . . .**﴾[7] .

---

(١) سورة الفرقان : ٥٩ .

(٢) سورة الإنشقاق : ٦ .

(٣) سورة النجم : ٤٢ .

(٤) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٥) سورة الكهف : ١٠٩ .

(٦) سورة الكهف : ١٠٩ .

(٧) سورة لقمان : ٢٧ .

الإيمان بالرسول

بالرجوع إلى المعلم يُلتَمَسُ العلم ؛ لأنه رجوع إلى الحق ، والرجوع إلى الحق واجب . فهو الذي يرى عملنا معك يا رب كما قلت : ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ . . .**﴾[1] . فَارْضَ اللهُمَّ عنا بقبول شُكرِنا لك في شخصِ حبيبك الذي جعلت له نعَماً مع نعَمك ، حيث قلت في محكم تنزيلك : ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ . . .**﴾[2] وجعلت له الأجر استحقاقاً لا امتناناً ، كما جاء في محكم تنزيلك ﴿**وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾[3] ؛ وكذلك جعَلتَ لأحبابه الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وامتلأت قلوبهم بمحبته ، أجراً غير ممنون إكراماً له ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾[4] . ومَنَنْتَ به على المؤمنين بأن بعثته فيهم ﴿**لَقَدْ**

---

(١) سورة التوبة : ١٠٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٧ .

(٣) سورة القلم : ٣ .

(٤) سورة فصلت : ٨ .

مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِـيـهِمْ رَسُـولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .﴾[1] وجعلت رميه رميك ﴿ . . وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّـهَ رَمَى﴾[2] . . وطاعته طاعتك ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّـهَ . . .﴾[3] ، ومدحته بعظيم خلقه ، وأرسلته رحمة للعالمين رأفة بهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[4] وجعلت بيعته بيعتك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّـهَ . . .﴾[5] وضاعفْتَ الأجرَ لَمن يقنُت له مع القنوت لك ، حيث قُلتَ وقولك الحق : ﴿وَمَن يَقْنُتْ منكُنَّ للَّه وَرَسُولِه وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ . . .﴾[6] . كما تُضاعف الرحمة لمن يؤمن به ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ من رَّحْمَتِه وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِه وَيَغْفِرْ لَكُمْ . . .﴾[7] فهو الذي عنده علمُ الكتاب ، وليس فقط علمٌ من الكتاب كما كان لتلميذ سليمان الذي أتى بعرشِ بلقيس قبل ارتدادِ الطَّرفِ ، الذي يفوقُ سرعةَ الضوء

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٤ .

(٢) سورة الأنفال : ١٧ .

(٣) سورة النساء : ٨٠ .

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٥) سورة الفتح : ١٠ .

(٦) سورة الأحزاب : ٣١ .

(٧) سورة الحديد : ٢٨ .

أضعافاً ، لأن ارتداد الطرف هو انعكاس الضوء مِن المرئي إلى عدسة العين ، أي أسرع مِن لَمح البَصَر . ولا يعني ذلك أن ما كان مِن عِلم لمن كَلَّفَه سليمانَ بإحضار العرش لم يكن عند سليمان عليه السلام ، ولا يَدُلُّ طَلَبُ الشيء أو السؤال عنه على عدم العِلم به . قال الشاعر :

نحُن أدرَى وَقَد سألْنا بنَجد
أقَصيرٌ طريقُنا أَمْ طويلُ

فقد سأل الله عز وجل موسى عن ما بيمينه وهو أعلم . وسأل النبي صلى الله وبارك عليه وآله أصحابَه عن ناقته وأخبَرَهُم بمكانها . وهذه الأحداث تحدث لحكمة يعلمها الحق . فلا يوجد في أمَّةٍ مِن الأُمم مَن هو أعلَمُ مِن رسولهم الذي أُرسِل إليهم . ومن يرى غير ذلك فهو يَتَّهِم الله سبحانه في اختيارِ رُسُلِه ، وأنهم ليسوا أفضلَ أمَمِهِم . وإنْ كان هناك مِن أتباعِ الرسل مَن يرى أنّ في أصحابه من هو أعلم منه أو أكثر منه حرصاً على الحق ، أو أنّ الله يؤيد أحداً غير رسوله في زمنه ، فَلِم إذاً يتبع ذلك الرسول؟ وهل يكون بذلك واثقاً من اختيار الله لرسله الذين يُرسِلهم لتعليم الناس؟ ﴿ . . . **أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾[1] .

(١) سورة محمد : ٢٤ .

طلب الأجر على العبادة..!

هناك العبد المحض الذي يعمل ، ولا يطلب من خالقه أجراً على الطاعة ، ويقول في نفسه : «أتطلب أجراً على الطاعة؟ ألا يكفيك أنه رضيك أهلاً لها؟؟» . قالوا إن العبد ملازم للباب دائماً ولا يطلب عوضاً لعمله ، أما الأجير إذا أعطي أجره انصرف . هناك بَعضٌ مِن أئمَّة المساجِد يطلبون رواتب وأُجوراً على صلواتهم مِن المخلوقين!! وربما طالَبَ بعضُهُم بيوم عُطلة في الأسبوع ، وربما طالَبَ بعضُهُم بزيادةِ الأجر على صلاته للمغرب والعشاء ؛ لأنها إضافة على وقت العمل الرسمي!! وما أسرعهم على الفتوى فقد أفتوا بأنّ الأجر الذي يأخذونه هو للانقطاع لهذه العبادة وليس للعبادة نفسها!!! وهل من ينقطع لعبادة الله يطالب الدولة بالأجر على ذلك؟ فهل الذي يأخذ أجراً من الناس على عبادته وعلى العمل الصالح يرجو بعد ذلك أجراً من الله حين يلقاه؟ قال تعالى : ﴿ . . . **فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[1] فطالِبو الأجر من الله – الذين لا يطلبون أجراً مِن المخلوقين على

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

العبـادة – أقل مـقـامـاً من الذين أسكتـهم الأدب عن الطلب ، وغَلَبَ عليـهم الحـيـاء من واهب العطاء الذي أعطاهم الحـول والقوة لهذه الطاعة . والمُلازِمُ لِبابِ سَيِّدِه أفضَلُ مِن الذي يُعطَى أجره وينصَرِف ، ومن لازم البـاب قـد يؤذن له بالدخـول . أمـا الذين يأخذون أجراً على العبادة مِن الناسِ فليستَحوا أن يطلبوا عليها أجراً مِن الله!!

قال تعالى ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا . . .**﴾[1] وهذا هو الحق الشرعي ، ولا غبار على الأخذ به . ولكن عند العارفين فَهْماً يختلف عما عليه العامة . فهم يرون في طلب الأجر من الله على العمل الصالح سيئة ، ناهيك عن طَلَبِ الأجر من المخلوقين جزاء عبادة الخالق ، لأن الله هو الذي أعطى طالب الأجر الحول والقوة لذلك العمل ويسَّره له ، فهو في الحقيقة يطلب ما ليس له بحق . وكان يجب عليه الشكر بأن جعله من أصحاب العمل الصالح ، بدلاً عن المطالبة بالأجر . قال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ . . .**﴾[2] فالذي يطلب الأجر عندهم هو صاحب سيئة يستحق عليها العقاب ؛ لطلبه ما ليس له بحق . لذلك قالوا : «حسنات الأبرار سيئات المقربين» . وكذلك فهموا الحديث «**اعمل لدنياك**

(١) سورة الشورى : ٤٠ .

(٢) سورة التغابن : ٢ .

كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[1] أنه لا يعني تقسيم العمل بالتساوي بين الدنيا والآخرة ، بل يعني تقديم عمل الآخرة لاحتمال موتك غداً ، وتأخير عمل الدنيا كأنك تعيش أبداً ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ . . **وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** . . .﴾[2] الذي يشير على ألا تكون محل الاهتمام ، بل أقرب إلى النسيان . وهناك تعامل أرقى من ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا** . . .﴾[3] ، وهو عدم الرد بالمثل ﴿ . . **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[4] وجاء ذلك أيضاً في تعاليم المسيح عليه السلام «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر»[5] وقال تعالى ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[6] وكذلك يوجد ما هو أرقى من ذلك ، وهو الإحسان إلى من أساء إليك وهذا يدخل المرء في حب الله له ﴿ . . **وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[7] .

---

(١) الاستقامة .

(٢) سورة القصص : ٧٧ .

(٣) سورة الشورى : ٤٠ .

(٤) سورة الشورى : ٤٠ .

(٥) تفسير بن كثير .

(٦) سورة المائدة : ٤٧ .

(٧) سورة آل عمران : ١٣٤ .

يحكى عن أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ جاريةً رَمَتْ القدح على ملابسه ، فنظر إليها فقالت : ﴿ . . **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ** . . . ﴾[1] قال لها : «كظمت غيظي» قالت : ﴿ . . **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** . . . ﴾[2] قال لها : «عفوت عنك» قالت : ﴿ . . **وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[3] قال لها : «فأنت حرة» واعتَقَها . فهذا هو سلوك العترة الطاهرة ، وأحباب محمد صلى الله وبارك عليه وعلى آله ؛ لأنه الأسوة الحسنة لهم ، وهو الذي من دون الرسل أجَّلَ دعوَته المُستَجابَة إلى يوم القيامة ؛ لتكون له الشفاعة لأُمَّته ، وهي قِمَّة الإحسان ؛ لأنه يَشفع لِمَن ضعفت نفسه ، ووقع في المخالفة فيما جاء من الشرع وارتكب المخالفات الشرعية عَن ضَعف نَفسي -وليس بفتوى من عنده- وهي الأخطاء والذنوب ، ما أعظمه من خُلُق «**قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَة وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ لأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ لاَ وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ**»[4] ، وقال صلى الله وبارك عليه وآله : «**الشفاعة لأهل الكبائر من أمتي**»[5] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٣) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٤) سنن بن ماجة .

(٥) المستدرك .

قد يقول قائل كل ذلك هو شريعة محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، ولكن الأصح هو القول بأن ذلك هو مما بعث به محمد صلى الله وبارك عليه وآله . فإن الشريعة هي القانون الذي يتحاكم إليه الناس ويضبط تعاملهم . أما الصبر والعفو والإحسان إنما هي الأخلاق وليست القانون ، وهي من تبعات القصد الأعلى من البعثة الشريفة . قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾[1] . فداعياً إلى الله بإذنه جزء من خمسة أجزاء من الرسالة .

هناك درجة من الرقي في التعامل في مقولة : «حسبك من البخل ألا تُبقي من حقِّك شيئاً» ، فسمِّيت المطالبة بالحقِّ كاملاً نوعاً من البخل . فالتعامل المطلوب هو السمو فوق المطالبة بالحق كلِّه من المخلوقين ومن الله سبحانه وتعالى -وليس لعبدٍ على الله حقٌ إلا ما أوجبه تعالى على نفسه- قال السهروردي الشهيد : «الفقير هو الذي ليس له إلى الله حاجة» ، فهو الذي يذكر الله لا لغَرَض . وإن الأسوة في ذلك من قال : «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1] ، والشكور اسم من أسماء الله . والشاكرون كُثُر ، أما الشكورون فقليل ما هُم ، ولم يُذكَروا في

(١) سورة الأحزاب : ٤٥-٤٦ .

(٢) البخاري .

القرآن بصيغة الجمع لأنه قد لا يوجد أكثر من واحد في زمن معين . لأنهم أهل التحقيق بالاسم الشكور ، وهم خلفاء الله فيه ، قال تعالى : ﴿ . . . **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[1] .

(١) سورة سبأ : ١٣ .

تَدَبُّر قول المرشد

قيل : «إذا أردت السلامة من كل مرض ، لا تعمل عملاً لغرض» . والغرض هنا يقصد به العوض ، فيكون عمل الإنسان هنا بمحض العبودية ، إن أُعطي شكر وإن حُرِمَ صبَر . ولا يفوته الشكر في صبره ؛ لأنه قد يكون الخير له فيما حُرِمَ منه ، قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**إني لأعطي الرجل وأدع الرجل والذي أدع أحب إلي**»[1] ، ولكن عليه ألا يشكر على الحِرمان ، بل على إرادة الخير له فيما لا علم له به ، فإن الشُّكر عِقال النِّعَم . فإن كان شُكرُه على الحِرمان زِيدَ منهُ له ، فليحذَر الإنسان ويتدبَّر .

جاء في الحديث : «**اتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[2] فإن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله حريص على الناس ورءوف بالمؤمنين رحيم بهم ، فيعلمهم بما ينجيهم من الوقوع فيما يؤذيهم في علاقتهم بالله سبحانه ، فلو اتبع الناس هديه لسلموا في دينهم ودنياهم ، ولكن الإنسان كما وصفه الله

---

(١) البخاري .

(٢) سنن ابن ماجة .

تعالى : ﴿ . . **كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾[1] . واتَّهموا النبي صلى الله وبارك عليه وآله بالجهل بشؤون الدنيا ونسبوا إليه «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[2] . وهل يعجز مَن بُعث معلماً للناس كافة عن نُصح الناس في إصلاح شئونهم ، أيّاً كانت؟ وهل هناك مَن هو أرجَح عقلاً من رسول الله؟ وهل العجز عن تدبير أمر الدنيا مدح؟ وهل مَن لا يُحسن تدبير دنياه يُحسن تدبير أمر الآخرة؟ كما اتهموه صلى الله وبارك عليه وآله بعدم العلم بأمر الآخرة لأنه غيب فهو عندهم لا يعلم أمر الدنيا ولا الآخرة!! فَتَجِدُ كثيراً من الناس يجتهد في خَلق علاقة مباشرة بَينَه وبين الله ، متخطياً وسيلته إليه وأحَبَّ خَلقِه ورحمَته إلى العباد الحَريص عليهم ، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين الشفيع للمذنبين – فيتعثر في سلوكه ويخطئ في تعامله . ويُذكَر أنَّ أحَدَهُم سألَ الله أن يرزقه دون جهد منه ليَتَفَرَّغَ لذكره ، فاستجاب الله له ورَزَقَهُ دون جهد منه ولا شُغل ، وذلك بأن صَدَرَ عليه حُكمٌ بالسّجن المؤَبَّد . ففي السجن يُرزَق دون جهد منه!! فلو كان ذلك السائل عاقلاً لاتَّبع الحديث ، فأجمل في الطلب ، وسأل الله قبول عمله وإدخاله في رحمته ، ولكنه جهل في سؤاله في تحديد رزقه دون جهد ، وعجز عن تحديد كيفية ذلك ، وحدد الغرض وهو الذكر ، ولا يدري أيقبل منه أم لا . فكأنه لَم يَرضَ أن يكون

---

(١) سورة الأحزاب : ٧٢ .

(٢) مسلم .

تحت مظلة قول النبي صلى الله وبارك عليه وآله «**الله المعطي وأنا القاسم**»[1] .

ذكر أن أحدهم كان جالساً مع أحد العارفين ، وجاء ذكر هذا الحديث : «**اتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[2] فقال مبتهجاً : «إني قد سألت الله قبل عشرين عاماً أن يجعل داري قرب المسجد أينما رحلت ، فإن طبيعة عملي تجبرني على التنقل ، وقد استجاب الله دعائي ، فما رحلت إلى بلد إلا كانت داري هي الأقرب إلى المسجد» فأجاب الشيخ «لقد أضَعتَ دعوةً مستجابة ؛ لأن قرب دارك من المسجد لا يعني قبول عملك ، حتى لو كان عملك داخل المسجد ، فإنك لا تجزم على قبوله منك ، فدعوتك كانت للدار ولم تكن لقبول العمل . فلو سألت الله قبول عملك أينما كنت ليدخلك في رحمته ، لكان أنفع لك» فإن الله قد جعل الأرض كلها مسجداً لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وهو الرحمة المهداة فـ«**اتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[3] .

هناك كثير من العباد يتبادر إلى أذهانهم فهم خاطئ ، ويصير عندهم مِن المُسَلَّمات ، حتى إنهم لا يفَكرون في أبعاد النص في غير ما فهموه منه . قرأ أحدهم الآية ﴿ . . . **وَمَن يَتَّقِ**

---

(١) البخاري .

(٢) سنن ابن ماجة .

(٣) سنن ابن ماجة .

اللَّـهَ يَجْـعَل لَّهُ مَـخْـرَجًـا * وَيَرْزُقْـهُ مِنْ حَـيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ . . .﴾[1] وظن أن الآية تختص بالرزق ، فسأل الله أن يرزقه من حيث لا يحتسب ، وفاته العلم بأن هذه الآية هي وعد الله لعباده المتقين حين يضيق بهم الحال ، وتوصد أمامهم السبل ، رغم ما يقومون به من أعمال . فيفاجأ بفصله من عمله الذي كان يأتيه منه رزق معلوم ، ولا يدري أنها علامة إجابة الدعاء . ولم تنجح له تجارة بعد ذلك ولا عمل بأجر محدد . فكان كمن سأل الله أن يوصد أمامه جميع أبواب الرزق التي يحتسبها ، فلا يرزق إلا من حيث لا يحتسب . فلو اهتدى بالنبي وأجمل في الطلب ؛ لسأل الله أن يرزقه من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب ، وأن يدخله في رحمته .

هناك كثير من الأقوال يتداولها الناس بفَهم مغاير لحقيقة ما تَدُل عليه . فمثلاً قول : «لا يُفتى ومالك بالمدينة» يعتبره الكثيرون مدحاً لمالك ، بينما هو في الحقيقة إرهاب فكري وديني مِن الحاكِم ، والذي قد يكون أقل علماً مِن مالك وإلا لكان هو الذي يفتي ليس غيره . فكيف يحق لمن هو أقل علماً أن يفرض على الناس علم أحدٍ من الرعية على كل الأُمَّة؟ كذلك إذا تحدث أحدٌ في أمرٍ بإسهابٍ مُمِل قالوا عنه : «قال فيه ما لم يقُله مالك في الخمر» . بينما ما لم يقُله مالك لا أحد يعرفه ، فكيف يستَشهِد المرء بشيءٍ لَم يُقال؟

---

(١) سورة الطلاق : ٢-٣ .

الطريق إلى الله

بَيَّنَ الله سبحانه مُراعاة السُّلوك للذين آمنوا ، وهم قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، بِذِكرِ سلوكِ مَن كان قبلهم مِن أهل الكتاب ، حتى لا يتخطوا النبي صلى الله وبارك عليه وآله في تعاملهم مع الله سبحانه ، وذلك حين استشهد الله سبحانه وتعالى بقول عيسى عليه السلام حيث قال تعالى : ﴿ . . **كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ** . . . ﴾[1] كي لا يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه الحواريون فيفهموا من قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ** . . . ﴾[2] عدم حاجتهم إلى رسوله محمد صلى الله وبارك عليه وآله لاستصحابهم له في السير إلى الله . فالحواريون لم يجيبوا عيسى عليه السلام بقول : «نحن أنصارك إلى الله» بل : ﴿ . . . **قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ** . . . ﴾[3] فتخطّوا

(١) سورة الصف : ١٤ .

(٢) سورة الصف : ١٤ .

(٣) سورة الصف : ١٤ .

عيسى عليه السلام ، وجعلوا علاقتهم مباشرة مع الله سبحانه ، وظنوا أنّ ذلك هو التوحيد ، فتعثروا في سلوكهم العرفاني لتخطيهم عيسى عليه السلام ، فقالوا : ﴿ . . **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ . . .**﴾[1] . فهؤلاء المسلمون من أتباع عيسى عليه السلام – الذين جاء القرآن يشهد لهم بذلك ﴿ . . . **وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[2] . وهم الحواريون– لم يلتزموا بقول الله تعالى ﴿ . . **اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[3] ، فكانت لهم صِلات بالذين كفروا من بني إسرائيل . ذلك لأنهم تخطوا عيسى عليه السلام في سلوكهم العرفاني بادعاء التوحيد ، ولم يقولوا له : «نحن أنصارك إلى الله» التي تشير إلى التزام الصحبة ، قال تعالى : ﴿**تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .**﴾[4] أي بميولهم لصحبتهم ؛ وكان يجب أن يكونوا أنصار عيسى إلى الله ، وبذلك يكونوا مع الصادقين . . . ﴿ . . **فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ . .**﴾[5] وجاءت اللعنة على أولئك الذين كفروا من بني

---

(١) سورة المائدة : ١١٢ .

(٢) سورة المائده : ١١١ .

(٣) سورة التوبه : ١١٩ .

(٤) سورة المائدة : ٨٠ .

(٥) سورة الصف : ١٤ .

إسـرائيل . وفي قـصـة إسـلام بلقـيس إشـارة إلى أهمـيـة إلـتـزام الصــحــبــة مع الصــادقين ، قــال تعــالى ﴿ . . . **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1] .

(١) سورة النمل : ٤٤ .

الفتاوى والدين

يُلاحَظ أن الله سبحانه وتعالى نهى آدم وزوجه مِن الاقتراب من الشجرة والأكل منها ، ولَم يستجيبا للأمر الإلهي ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ . . .**﴾[1] ﴿**فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ . . .**﴾[2] ولكن لا نجد الإشارة في المعصية لغير آدم ﴿ . . . **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾[3] كأنَّ السِّترَ الإلهي على المرأة أمرٌ أزلي ؛ فليتَ أصحاب الفتاوى يعلَمون ويعمَلون بالهدي الإلهي ، ويرحمون أنفسهم مِن اتِّهاماتِهم وسوءِ أحاديثِهم عَن المرأة التي كرَّمَها الله بستره ، وقال تعريفاً لقَدرها وفضلها : ﴿ . . . **وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى . . .**﴾[4] ولم يقل : «وليست الأنثى كالذكر» كما يفهم الكثيرون ذلك من هذه الآية .

---

(١) سورة البقرة : ٣٥ .

(٢) سورة طه : ١٢١ .

(٣) سورة طه : ١٢١ .

(٤) سورة آل عمران : ٣٦ .

وجاءوا بحديث ينسبونه لصاحب الشرع صلى الله وبارك عليه وآله يقولون فيه : «**أَيُّمَا امْرَأَة اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْم لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ**»[1] ، بينما صاحب الشرع فيماً جاء به في مُحكَم التنزيل يقول ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[2] فلو أن ثلاثة رأوها مع رجل رأي العين ، وقالوا : إنها زانية ، يجلدون حدّ القذف ، ولا تُقبَل شهادَتُهم أبداً ، ويُحسبون من الفاسقين بعد ذلك ، فكيف يقولون على من شُمّ عطرُها إنّها زانية؟ أليس من يقول ذلك يُحسب من الفاسقين ولا تُقبَل شهادَتُه بعد ذلك ويُجلَد حَدّ القَذف؟ أليس ذلك من قبيل رمي المحصنات؟ هل هناك قذف أكبر من هذا؟ اتهام بالزنا على مجرد شم عطر!! إنَّ المرأة التي يراها رجل أو رجلان أو ثلاثة تجامع رجلاً ليس زوجها لايقال عليها زانية – كما نص الله سبحانه على ذلك في القرآن – فكيف يقال ذلك على من وضعت عطراً فقط؟ ويقودنا ذلك لتعريف من هي الزانية إذا كانت ليست هي التي يراها أقل من أربعة رجال في حالة جماع مع غير زوجها! فالراجح أنّ المرأة لا يقال عليها زانية إلا إذا كانت تمتهن البغاء وكذلك الرجل . ولقد دخل رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله مرة

---

(١) سنن النسائي .

(٢) سورة النور : ٤ .

إلى داره فوَجَدَ ريحَ طيب ، وكان الطيب لأسماء بنت أبي بكر التي كانت قد زارت أختها عائشة في ذلك اليوم دون صحبة زوجها الزبير . فقال الرسول صلى الله وبارك عليه وآله : «**مَا عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ لا تَطَيَّبَ وَزَوْجُهَا غَائِبٌ**»[1] . وقد روي عن عائشة أنها قالت : «كُنَّا نَخْرُجُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ فَنُضَمِّدُ جِبَاهَنَا بِالسُّكِّ الْمُطَيَّبِ عِنْدَ الإِحْرَامِ ، فَإِذَا عَرِقَتْ إِحْدَانَا سَالَ عَلَى وَجْهِهَا فَيَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَنْهَاهَا»[2] . ورغم ذلك ما أكثر الفتاوى عن المرأة!

فما أصعب وأخطر حال مَن يتصدى للفتوى ، اعتماداً على أنه من رابطة العلماء الشرعيين ، أو رابطة كبار العلماء الشرعيين . ثم يشرع للناس من الدين ما لم يأذن به الله ، ويُكَفِّر بِهِ أقواماً ، ويُدخِل بِهِ النارَ مَن يُريدُ إدخالَه – كأنه وكيل عن الله – ويسمي ذلك فقه الضرورة ، ودرء المفاسد ، وجلب المصالح ، ويدعي قياساً وظناً بأن ذلك دين! إنه تشريع ، ولكنه ليس من نبي مرسل ، والله سبحانه لَم يَتَّخِذ وكيلاً عنه في هذه الدنيا ولا من أَحَدِ رُسُلِه . فلا يجوز أن يسمى ديناً يُحكم به الناس إكراهاً! فذلك عدم الإقرار بالضعف الذي يقود للرحمة .

إنّ الذي يتصدى للفتوى للحُكمِ على الناس ليُكفِّر هذا ،

---

(١) المعجم الكبير للطبراني .

(٢) سنن أبي داؤود .

ويحكُم على ذلك بدخول النار ، وعلى غيره بالضلال هو الذي أمِن مكر الله ، وإن ادَّعى أنّه مِن رابطةِ العلماء الشرعيين ، وإلا لكان له في نفسه ما يُغنيه عن النظر في عيوب الآخرين ، وهو بذلك خسر الدنيا والاخرة ؛ لأنه ليس بمأمن ﴿ . . . **فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[1] . والانشغال بالآخرين يدل على نسيان الإنسان لنفسه ، وتلك أم المصائب ؛ لأنها تدل على أنّ المرء قد نسي الله ، فهذه دلالة على سوء حاله ومآله الأليم . فنسيان الإنسان لنفسه هو نتيجةٌ وعقاب لنسيانه لله ؛ قال تعالى ﴿ . . . **نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ** . . .﴾[2] . وليحذر الإنسان المكر الإلهي ، ولا يكون من أصحاب الخسران المبين الذين صنَّفوا أنفسهم في الآمنين من مكر الله . فالهالكون هم الذين يعتقدون أنهم الفرقة الناجية وهم الذين يأمنون مكر الله ﴿ . . . **قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً** . . .﴾[3] ويتصدون للفتوى بتكفير الآخرين ، وهو أمر لم يُطلَب منهم شرعاً ، إنما هو حشر للأنوف في شأن الغير ونسيان للنفس . ونسيانُ النفس كما ذكرنا هو نتيجة لنسيان العبد لله ، لذلك يترتب عليه نسيان الله للعبد ﴿**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا**

(١) سورة الأعراف : ٩٩ .

(٢) سورة الحشر : ١٩ .

(٣) سورة يونس : ٢١ .

فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[1] . **﴿الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا . . .﴾**[2] ونسيانه تعالى ليس مِن تَذَكُّر ، فانه سبحانه تعالى وتنَزَّه عن العقل ، انما هو تجلٍّ مِن تَجَلِّياته . وإذا صح الحديث أنّ الأمة تنقسم إلى اثنين وسبعين فرقة الناجية منها واحدة فإنّ أشهَر هذه الفرق هي المذاهب الأربعة وهذه يكون منها ثلاثة في النار!!

أفتى كثير من الفقهاء بحرمة علم الخط (الرمل) وكفّروا من يعمل به ، رغم وجود الحديث الذي رواه مسلم في باب الكهانة : «**كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك**»[3] وذلك يعني أن علم الرمل أو الخط سنة من سنن أحد الأنبياء ، فمن بلغ فيه من العلم ما وافق خطّ ذلك النبي فإنه لا يخطئ أبداً . ومحمد صلى الله وبارك عليه وآله جاء مصدقاً لما جاءت به الرسل من قبل ، وليس لاغياً له ؛ قال تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ . . .﴾**[4] . ولا يجوز لمؤمن أن ينكر فعل أحد الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه ، وإلا كفر بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله وما جاء به ، **﴿ . . . مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ**

---

(١) سورة طه : ١٢٦ .

(٢) سورة الجاثية : ٣٤ .

(٣) مسلم .

(٤) سورة النساء : ٤٧ .

الْكِتَابِ . . .﴾[1] فالذين أفتوا بتحريم هذا العلم إما أنهم لم يقرأوا هذا الحديث ، وهذه مصيبة أن يُقدِم من يقال إنه من كبار العلماء على هذه الفتوى ، وهو لم يطلع على هذا الحديث ، وإما أن يكونوا قد اطَّلعوا عليه ولم يفهموه ، وهذه أكبر من تلك : أن يكون العالم مصاباً في فهمه . وإمّا أن يكونوا قد كفروا بما جاءت به الأنبياء من قبل ، والذي جاء محمد صلى الله وبارك عليه وآله مصدقاً لما جاءوا به ، وهذه ثالثة الأثافي!! ونقول دائماً وأبداً : إن النص مقدس ، ولكن الفهم غير مقدس . فالدين قد اكتمل يوم قال الله تعالى : ﴿ . . **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِينًا . . .﴾**[2] ولم يُكرَه أحدٌ على الإيمان أو ترك دينه طيلة العهد المحمدي ، إلى أن رحل محمد صلى الله وبارك عليه وآله إلى الرفيق الأعلى . ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . . .﴾**[3] . ﴿ . . . **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾**[4] .

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣) سورة السجدة : ١٣ .

(٤) سورة يونس : ٩٩ .

ما هو علم الغيب...؟

الغيب ينقسم أربعة أقسام . ثلاثةٌ منها تتعلّق بالزمن ، ألا وهي : ما كان في الزمن الماضي ، والثاني ما هو في الزمن الحاضر ، ولكنه صار غيباً لبُعدِ مكانه ، والثالث ما يكون في الزمن المُستقبل ، أما الرُّكن الرابع فيتعلَّق بالنَفع والضرِّ دون قيدٍ زَمَني .

فالأقسامُ الثلاثة المُتعلِّقةِ بالزمن قد أتاح الله العلم بها لبعضِ عِباده . ولقد أخطأ مَن أفتى بأن لا أحد يعلم ما يأتي في الزمنِ المُستَقبل غير الله ، إلا إذا كان المُفتي بذلك يرُد الحول والقوة إلى الله الذي أمدَّ مَن يعلَم ذلك بتلك المقدِرة ، وإلا فيلزمه أن يقول عن علماء الإرصاد الذين يحددون مجيء الأمطار والرياح ، وكذلك علماء الفلك الذين يحددون الكسوف والخسوف ، والأطباء الذين يعرفون الأجنة في بطون الأمهات ، بأنهم آلهة .

الزمنُ أمرٌ مُتَوَهَّم ناتِجٌ عن دورةِ الفلك ، فالإنسان إذا خرَجَ عن الغلاف المُحيط بالكرة الأرضية ، ينعدم عنده الزمن بانعدام الليل والنهار . فالزَّمَن أمرٌ يخصُّ العِباد ، ومنه استخلصوا مِن العلومِ ما يبتغون في حياتهم الدنيا ، ومهَّد الله لهم ذلك ،

فتوصلوا إلى معرفة ما يحدث في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل بحول الله وقوَّته ، قال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[1] .

علَّمَ الله سبحانه الإنسانَ ما لَم يعلَم ﴿**خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[2] وسَخَّرَ له الأكوان تمهيداً لرقيه ورفعته ، قال تعالى : ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ . . .**﴾[3] . فبعلم الآثار استطاعَ الإنسانُ معرفةَ أحوال الأُمم السابقة ، وكَشَفَ الله لعبادِه بعضَ غيبِ الماضي من تلك الأُمم ، ولا نُنكِر إمكان وجود وسيلة أخرى غير علم الآثار لمعرفة الماضي – فليس الإنكار علماً . وجعل لهم في ذلك العِبَر والدروس كي لا يقفوا عند الذي يعطيهم إياه العلم ، فتصيبهم نشوة العجب المُهلِك بما وصلوا إليه ، ويرون في أنفسهم الأفضلية على بقية الخلق . فقد حذر المعلم من العجب أيما تحذير ، حتى جعله أسوأ من ارتكاب الذنوب . قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد**

---

(١) سورة يونس : ٥ .

(٢) سورة الرحمن : ٣-٤ .

(٣) سورة الجاثية : ١٣ .

من ذلك العجب»[1] فالعلم الذي لا يقود صاحبه إلى صالح الأخلاق علم لا ينفع ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[2] .

بِعلم الاتصالات استطاع الإنسان معرفة ما يجري في أيِّ بلد مِن أَقاصي المَعمورة ، فكَشَفَ الله لعبادِه ما غاب عنهم بالبُعد . وبِعلم الفلك استطاع الإنسان معرفة ما يجري في الزمن المُستَقبَلَ مِن كُسوفٍ وخُسوف ومَدٍّ وجَزر ، وغير ذلك مما يُنكره بعض مُنكري العلم . . وليس الإنكارُ علماً كما ذكرنا . وقد جاء في الحديث : «**إذا طلع النجم ارتفعت العاهة**»[3] والنجم المقصود هنا هو الثريا التي في غيابها يكون الحر قد بلغ ذروته قال تعالى : ﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾[4] وفي حالة غياب الثريا الذي قد يستمر اثنين وخمسين يوماً ، تجد الإبل التي هي من أعجب مخلوقات الله ، إذا رقدت ليلاً تتجه نحو الغرب ولا تتجه إلى الشرق إلا عند أول يوم تطلع فيه الثريا ، ومن عجائب الإبل أنها تتحكم في الماء في أجسادها ، وهي بذلك تتحكم في أبوالها التي جعل الله فيها شفاء من

---

(١) مسند الشهاب .

(٢) سورة غافر : ٨٢ .

(٣) مسند أحمد .

(٤) سورة النحل : ١٦ .

الاستسقاء . ويُفهم من قوله تعالى : ﴿**عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[1] علم الغيب ؛ لأن ما لَم يعلمْه الانسان فهو غيب ، ففي الآية ما يشير الى أن الله سبحانه يُعلِّم الإنسان ما كان غيباً عنه ﴿ . . **مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ ولا يوجد غيب بالنسبة لله سبحانه ليطلع عليه ، فالأمر كله عنده شهادة ؛ لأنه الفاعل له ، فالغيب هو بالنسبة للإنسان ، ولم يرد عنه تعالى أنه لا يُعلّم أحداً علماً من العلوم .

جاء القرآن الكريم مُبَيِّناً علم الإنسان بهذه الأقسام الثلاثة مما أفاضَه الله عليه ، فأشارَ إلى القسم الأول (الماضي) بقوله تعالى : ﴿ . . . **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** . . .﴾[2] ، وأشارَ إلى الثاني بقوله تعالى : ﴿**الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ** . . .﴾[3] ، وأشارَ إلى الثالث في الآية نفسها إذ قال تعالى : ﴿ . . . **وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ** . . .﴾[4] ، كما أشار إلى ذلك أيضاً في قصة تزويج شُعيب ابنتَه لموسى ، بعد أن يخدمه ثماني سنوات ، في قوله : ﴿ . . . **أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى**

---

(١) سورة العلق : ٥ .

(٢) سورة آل عمران : ٤٤ .

(٣) سورة الروم : ١-٣ .

(٤) سورة الروم : ٣-٤ .

ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَج . . .﴾[1] حيث يُفتَرَض حياة موسى وشعيب والبنت محل العَقد ، حتى نهاية مدة الأجر . ويستحيل الجهل على الرسل ويوضح شعيب عليه السلام أنّ الجميع باقون حتى نهاية مدة العقد وبعدها لقوله : ﴿ . . . **فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ . . .﴾**[2] ويؤيد موسى عليه السلام ذلك بقوله ﴿ . . . **أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ . . .﴾**[3] ومعلومٌ أن المَهر حقٌ للزوجة ، ولكن بحكمة من شعيب عليه السلام جعله يبدو كأنه حق له في قوله : ﴿ . . . **عَلَى أَن تَأْجُرَنِي . . .﴾**[4] وهو في الحقيقة حق للزوجة هنا ، لأنه رفع عنها خدمة أبيها طيلة هذه المدة .

إن العِلم الذي تستحيل معرفته يكون في حُكم المعدوم ، ولا معنى له . وقيمة العِلم في تأثيره ، والذي تستحيلَ معرفتُه كذلك لا يُعلَمُ له تأثير . وإن كان هناك تأثيرٌ فلا يُنسَب إليه – لِعَدم معرفته – ومن ثَمَّ فلا يُصَنَّف من العلوم ولا قيمة له .

والقسم الرابع من علم الغيب هو علم النفع والضر . وهذا لا يتعلَّق بالزمان ولا بالمكان ، ولذلك هو من اختصاص الحقِّ سبحانه الذي لا يُقيِّده الزمان ولا المكان ؛ قال تعالى : ﴿ . . .

---

(١) سورة القصص : ٢٧ .

(٢) سورة القصص : ٢٧ .

(٣) سورة القصص : ٢٨ .

(٤) سورة القصص : ٢٧ .

وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1] . هذا العلم الإلهي يتعلَّق بمعرفة النتائج ، فهو من حيثُ تعلُّقُه بالشيء المحبوب أو المَكروه فذلك وجهٌ يعرِفُه المُحِبُّ أو الكاره ، وذلك لوجودِ الشيء الذي يتعلَّق به الحُب والكره ، فهو معلومٌ لدى الإنسان من حيثُ تعلُّقُه بالشيء . أما ما يؤدّي إليه اقتناء ذلك الشيء من خيرٍ أو شر فهو أمرٌ تمتنع معرفته للإنسان ، وليس لغير الله سبحانه وتعالى معرفةٌ به . ولا يعني ذلك أن الله لا يَمُنُّ على أحد من عباده بنفحَةٍ منه في العلم الإلهي لتبين له ما غاب عن الآخرين ، قال تعالى : ﴿ . . **وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ . . .**﴾[2] فبين سبحانه اختصاصه بالعلم بهم ، ولكنه لم يبخل به على حبيبه محمد صلى الله وبارك عليه وآله فأطلعه عليهم ، فصار علمه بالمنافقين هو علم الله بهم . فنفيُ الله لعلمه بهم هو رفعة لعلمه ، ليكون علمه بهم هو علم الله ﴿ . . **نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ . . .**﴾[3] كما كان نفي رميه كذلك رفعة لرميه ﴿ . . **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى . . .**﴾[4] . وخص النبي محمد صلى الله وبارك عليه

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ .

(٢) سورة التوبة : ١٠١ .

(٣) سورة التوبة : ١٠١ .

(٤) سورة الأنفال : ١٧ .

وآله بذلك السر حذيفة دون بقية الأصحاب ، فَلُقِّب بعد ذلك بصاحب السر ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يسأله عن المنافقين ، وكان في عهده لا يصلي على أحد إلا إذا حضر حذيفة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) .

أسرع الحاسبين..!

هناك أمر إلهي يقودنا إليه الحديث عن السرعة ، وهو فوق السرعة نفسها . فإن كان أقصى ما علمه الإنسان في السرعة هو سرعة الضوء ، فهناك ما لا يمكن للإنسان إدراكه . قال تعالى : ﴿**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾[1] والمتدبر لهذه الآية قد يجد فيها ما يحير العقل ؛ فهي تتحدث عن الخلق ، ولكنه بصورة لُبِّسَ فَهمُه على الناس . ولا يعني ذلك عدم من لا يعرف هذا الخلق المتجدد ، بل لا بد من وجوده ، فالاستثناء وارد ، فالله سبحانه قال : ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . . .**﴾[2] ، فهل دمرت كل شيء؟ قال تعالى : ﴿ . . **فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ** . . .﴾ فالمساكن لم تدمر ؛ ومعرفة الاستثناءات من دقائق العلم . فمثلاً من المألوف أن الإنسان لا يرى في الصبر غير المدح لصاحبه ، ولا يرى غير الذم للجزع عند الرجال في النائبات ، ولكن انظر لما قاله الإمام علي عليه السلام : «ما أجمل الصبر إلا عنك يا رسول الله ،

---

(١) سورة ق : ١٥ .

(٢) سورة الأحقاف : ٢٥ .

وما أقبح الجزع إلا عند فقدك صلى الله عليك وآلك» فوجود من يعرف اللبس وتبيينه لمن قصرت عقولهم عن فهمه ، أمر تفرضه سنة الحياة التي جعلها الله لعباده .

الآية ﴿**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيد**﴾[1] تتحدث عن الخلق كله ، وهذا يعني كل المخلوقات أي الكون كله! فلنأخذها على الإنسان لنرى شيئاً من كيفيتها . فالإنسان نسخة من الكون الكبير كما قال الإمام علي عليه السلام :

«**وتحسب أنك جرم صغير**
وفيك انطوى العالم الأكبر»[2]

لأن الإنسان خليفة الله سبحانه في هذا الوجود . فالمولود مثلاً بكامل أعضائه واختير له اسم ، لن تكون أعضاؤه تلك التي ولد بها هي أعضاؤه وهو في سن الأربعين ، فإن يده تضاعف حجمها وطولها ، وكذلك رجله وسائر أعضائه ، فكيف تم النمو لهذه الأعضاء ، والتي يوشك أن يكون من المستحيل ملاحظة تطورها ، من وقت الولادة إلى بلوغ سن الأربعين؟ هي قطعاً ليست تلك الأعضاء . فقد تغيرت كلّ الذرات المكونة لها . ومن ثَمَّ فهذا الذي في سن الأربعين ، ليس هو ذلك المولود قبل أربعين سنة!! لقد تغير كل شيء فيه إلا اسمه ، فهو خلق جديد ، ولكنه لم يتم فجأة بل تدريجياً ، بحيث لا يحس به

---

(١) سورة ق : ١٥ .

(٢) تفسير الألوسي .

صاحبه ولا غيره . أي أنه يتم التغيير أو التحول بسرعة لا يدركها أحد ، حيث تتحول خلايا جسمه وتتغير حتى يتم النمو إلى كمال البنية . والاسم هو الذي يتم التعامل مع الذات عبره ؛ إذ قد تكون الذات متعددة الأجزاء متعددة الأغراض متأثرة بالزمان والمكان ، فالانتماء يكون إلى الاسم الدال عليها ؛ لأنه يشير إلى وحدة الذات المتعامل معها ، وإن كانت متعددة الأغراض والأجزاء ومتأثرة بالزمن .

قد يكون التغيير أو التحول لهذه الذات أو الجسم ، هو انعدام الحالة التي يكون عليها الجسم ثم إعادته في الوقت نفسه ، بوضع تحصل فيه الزيادة المرتقبة والنمو ، فهو خلق جديد ولكنه يُشاهَد بصورته التي كان عليها ، لعدم إمكانية مشاهدة التغيير ؛ لأن الانعدام والإيجاد يتم في وقت واحد بقدرته تعالى ، بَل إنَّ المُشاهِد نفسه يدخل في حالة الإنعدام والإيجاد هذه ، فلا يمكن لأحد من الخلق مشاهدته . قال تعالى : ﴿**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ . . .**﴾[1] وقد يكون في هذا إشارة لفهم قوله تعالى : ﴿ **. . وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ . .** ﴾[2] وهذه الآية تشير إلى بعض علم الساعة وهو سرعة وقوعها ، فإنّ علم الساعة لا يعني حفظ التوقيت الذي تحدث فيه ، فذلك

(١) سورة الكهف : ٥١ .

(٢) سورة النحل : ٧٧ .

أجل محدد ، وهو من بعض علم الساعة ، فعلم الساعة أشمل ولا ينحصر في معرفة أجل فقط أو سرعة حدوثه .

يُلاحَظ في هذه الآية قوله : «أو هو أقرب» الذي يعني نوعاً آخر من السرعة . وعبارة «كلمح بالبصر» تخص السرعة التي تنسب إلى الضوء ، أما عبارة «أو هو أقرب» فهي إشارة إلى نوع آخر من السرعة غير الذي يُدرك بالبصر ، وقد تكون سرعة الصوت التي يُعتَقَد حتى الآن أنها أقل من سرعة الضوء ، ولكن لا يمنعنا هذا الاعتقاد من التدبر لمناقشة المسلمات ما لم تكن في الثوابت كالأخلاق . فقياس الصوت بالسمع لا يدل على حقيقة سرعته ؛ لأن السمع لا يكون إلا عند ذبذبة معينة تلتقطها الأذن . ولكن لو لاحظنا بعض المخلوقات نجد أن لها مقدرة سمع عجيبة ، ومنها ما يسمع حدوث أمر قبل وقوعه بزمن طويل كالزلازل والبراكين ، وتتخذ لها ملجأ من ذلك . وقد يتوصل الإنسان إلى اختراع آلة يمكن أن يرصد بها وقوع أحداث أرضية أو فلكية بصورة أسرع من سرعة الضوء . وقد يلاحظ في المذياع مثلاً عند سماعك للمذيع يقول : «هنا (البلد الفلاني)» في اللحظة التي يقولها في بلده ، وذلك لالتقاط مذياعك للذبذبة الصوتية ، فلو كانت أذنك على نفس الذبذبة لسمعته كذلك دون حاجة للمذياع . وإذا كان يمكن سماع ما يبثه المتكلم عبر المذياع في نفس الزمن الذي يقول فيه كلمته ، فهذا يعني أن للصوت سرعةً يَتَعَذَّر قياسها وتَتَوَقَّف على إمكانية التقاط المتلقي . وقد جاء ذكر السمع في القرآن

دائماً قبل البصر أفلا يُتأمل ذلك؟ وعلى كلٍ فإن سرعة وقوع الساعة هو أمر فوق سرعة الضوء ، والله سبحانه هو ﴿ . . . **أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾[1] ، ﴿ . . **وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . .**﴾[2] . ويوم تقوم الساعة ينكشف عِظَم العلم الإلهي ﴿ . . **فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[3] ويرى الإنسان ما لا يمكن أن يحصره عقل . والإدراكُ البَصَري أكبَرُ من الإدراك العَقلي ، ولذلك جاء قوله تعالى ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ . . .**﴾[4] . فقد يرى الإنسان شيئاً لا يقبله العقل وذلك لمحدودية العقل . فمثلاً قد يرى إنسان بغلةً تدخل في الإبريق ، وهذ أمرٌ يرفضه العقل ؛ لأنه خارجٌ عن حدوده ، فإذا قال : «البغلة في الإبريق» عرّض بنفسه ، وقد يتهم بالجنون ولكنَّ الإدراكَ البَصَري لا حدود له ، ويُدرك دخولَ الجَمَلِ في سُمِّ الخياط . والإدراك البصري غير الإدراك النظري ؛ قال تعالى ﴿**وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ**﴾[5] .

قد يطرأ هنا سؤال عن محاسبة الإنسان في الآخرة ، فإذا

---

(١) سورة الأنعام : ٦٢ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٥ .

(٣) سورة ق : ٢٢ .

(٤) سورة الأنعام : ١٠٣ .

(٥) سورة الواقعة : ٨٤-٨٥ .

كـان الإنسـان صـاحب السـتين سنة ليس هو ذلك صـاحب العشرين سنة – لما طرأ عليه من تغيير – فكيف يُحاسَب على أعمـال ارتكبـها في سنين مـختلفة؟ تبـدو الإجابة في غـاية الصعوبة ، إذا تصور الإنسان أنه واقف أمام من يسأله . ففي كل فترة من عمره تغيرت أعضاؤه ، ففي أي عمر يحاسب؟ وهل تُحاسب أعضاء على أعمال ارتكبتها أعضاء أخرى؟؟ وما هي الكيفية التي تتم بها المحاسبة؟

مـا أسـهل الإجـابة على ذلك حين يتـدبر القـرآن . قـال تعـالى : ﴿ . . . **كَـفَى بِنَفْـسِكَ الْيَـوْمَ عَلَيْكَ حَـسِـيـبًـا** ﴾[1] فالإنسان إذا حاسب نفسه حاسبها في كل أطوارها ، وهكذا يكون الحساب في الآخرة ، قال تعالى : ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْـرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْـمَلْ مِـثْـقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَرَهُ**﴾[2] وهذه الآية تدل على الحساب وليس العقاب ، كما فهمها البعض . فإن الله سبحانه يُري عبده المحاسَب أعماله كلها يوم القيامة مهما بلغت من الصغر ﴿ . . **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَـاءِ . . .** ﴾[3] ﴿ . . **إِنَّهَـا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ**

---

(١) سورة الإسراء : ١٤ .

(٢) سورة الزلزلة : ٧-٨ .

(٣) سورة يونس : ٦١ .

فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ . . .﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **. . . وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**[2] . وبعد أن تتم محاسبة النفس ، ويرى العبد أعماله كلها خيراً كانت أم شراً ، فالأمر بعد ذلك إلى الله ، إن شاء عاقب وإن شاء غفر ﴿ **. . وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ . . .﴾**[3] .

أشارَ الله سبحانه إلى عظم ما في الساعة من الأمور بما يحدث في هذه الدنيا عند زلزلتها ، قال تعالى : ﴿ **. . إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾**[4] فهذه زلزلة الساعة وليست قيام الساعة كما فَسَّرَها مَن جَهِلَها ؛ لأنه ليس في الآخرة مرضعة أو ذات حمل ، فإنّ كل ذلك يحدث في هذه الدنيا عند زلزلة الساعة . . ﴿ **. . وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا . . .﴾**[5] و**﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ . . .﴾**[6] . وهناك أيضاً

---

(١) سورة لقمان : ١٦ .

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٣) سورة الرعد : ٦ .

(٤) سورة الحج : ١-٢ .

(٥) سورة الشورى : ١٨ .

(٦) سورة فصلت : ٤٧ .

من فسر قوله تعالى : ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ . . .**﴾[1] بأن ذلك يوم تقوم الساعة ، ويكشف الرب عن ساقه ، ويُدعى الناسُ إلى السجود ، فلا يستطيع الكفار والمنافقون السجود ، وتصلّب ظهورهم . وهذا التفسير لم يترك للجهل شيئاً . فالآخرة ليست دار عمل ليكون فيها سجود أو صلاة أو نوع من التكليف – لأنها دار جزاء – وتعالى الله عن التشبيه ليكون له ساق كالبَشَر ، وتعالى أن يحويه جلباب أو بنطال ، وإلا كان ذلك الجلباب أو البنطال – الذي هو من الملبوسات – هو الأكبر ، وحينئذ يجب أن يُقال جلباب الله أو بنطال الله أكبر وليس الله أكبر ، وتعالى الله أن يحويه شيء أو يحجبه حجاب غير حجاب العزة ، وإلا لكان الحجاب أكبر ، ولكان الحجاب هو الأولى بالاسم «الظاهر» وليس الله سبحانه . فالحجاب متعلق بالمخلوقين والله هو الظاهر بجلاله . وقد جهل من نسب هذه الآية إلى قيام الساعة ، كما جهل من نسب زلزلة الساعة إلى قيام الساعة . فأمر كَشفِ الساق عند الزلزلة هو أمر عظيم كالزلزلة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

---

(١) سورة القلم : ٤٢ .

خليفة الله في الأرض

من معاني الشُّكر استعمال الشيء فيما خُلِق له . فالواجب على الناس إعمال قدراتهم وتفجير طاقاتهم فيما أوتوا من علم للرقي بحياتهم ؛ ليقوموا بواجب الخلافة في الارض . قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**»[1] وهذا ما يجب أن يكونوا عليه ، ليؤدّوا واجب الشكر لربهم الذي وعَدَهُم بالزيادة حينها لقوله تعالى : ﴿ . . . **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** . . . ﴾[2] . ولكن أكثرهم تقاعَسَ وأخلَدَ إلى الأرض ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[3] ، وانشغلوا بالنعيم فيها – فهي أُمّ الكون ، وفيها كل ما تحتاجه النفس البشرية التي خُلِقَت منها – ونسوا أنها ستتبدّل ، ويكون نعيمها دائماً لا ينفد ولا يُحَدّ . وأن الذي يلهثون وراءه من نِعَم هذه الحياة كلبس الحرير والذهب والفضة ومطايب اللحوم والفاكهة والخمر والنساء ، كله موجود في الدار

---

(١) الدرر المنتثرة للسيوطي .

(٢) سورة إبراهيم : ٧ .

(٣) سورة يوسف : ١٠٣ .

الآخرة ، وإن الموجود منها هنا لا يساوي شيئاً بالنسبة لما يكون فيها في الدار الآخرة . وإلى العيش في الحياة في وجودها الآتي الدائم كان يجب أن يكون تفكيرهم وعملهم ﴿ . . . **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[1] . وفيها ما لا عينٌ رأَت ولا أذنٌ سَمِعَت ولا خَطَرَ على قَلبِ بشر .

خليفة الله بالتأكيد هو أعظم المخلوقات في الوجود من حيث الخَلق والعِلم ، ولا يدانيه في مقدراته العلمية كائنٌ من السموات ، ولو كان ملكاً من الملائكة ، لكونه خليفة الله . ولكن جهل أكثر الخلق قدر أنفسهم في الخلافة في هذه الأرض إلا قليلاً منهم طلبوا العلا فكان لهم ذلك ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ . . .**﴾[2] ، أما أكثر الناس فكانت الدنيا مطلبهم ومبتغاهم ، وقد وصف الله سبحانه الدنيا بقوله الحق : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[3] والله سبحانه كريم يعطي كل

---

(١) سورة العنكبوت : ٦٤ .

(٢) سورة ص : ٢٦ .

(٣) سورة الحديد : ٢٠ .

سائل مسألته ﴿ . . وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . ﴾[1] ﴿ . . . مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ . . . ﴾[2] ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[3] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[4] وهناك من أكرمه الله وأعطاه من آياته ، ولكنه انسلخ منها وأخلد إلى الأرض . قيل إنه بلعام بن باعوراء فوصفه الله تعالى بأن مثله ﴿ . . كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث . . . ﴾[5] . فيا حسرة على العباد في عدم إعطاء هذه الخلافة ما تَستَحقّه من الاهتمام في السلوك والقِيَم ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ . . . ﴾[6] وفي هذا المجال هناك لطيفة تجدر الإشارة إليها ألا وهي : إذا كان الخلق هُم ﴿ . . . خَلاَئِفَ الأَرْضِ . . . ﴾[7] فإنَّ مَن يُحَدَّد باسمه أنه خليفة فذلك يدُل

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٢ .

(٣) سورة الإسراء : ٢٠ .

(٤) سورة الشورى : ٢٠ .

(٥) سورة الأعراف : ١٧٦ .

(٦) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٧) سورة الأنعام : ١٦٥ .

على استحقاقه للمقام ، لا كمن يخلد إلى الأرض ، فقد قال الحق سبحانه لداؤود تحديداً : ﴿**ياداؤود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ . . .**﴾[1] . وإذا كان الله سبحانه فضَّلَ بعضَ النبيين على بعض ، فقد يقول مَن يُدرك أن محمداً أفضل الأنبياء والمُرسلين : إن محمداً أفضل خليفة . ولكن القَدر المُحمدي تبدو عَظَمَتُه في حديثه صلى الله وبارك عليه وآله «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**»[2] وقوله في حال ظهور الدَّجَّال بعد انتقاله «**وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِم**»[3] . فالله سبحانه خليفة محمد صلى الله وبارك عليه وآله ووكيله .

جعل الله سبحانه في هذه الأرض آيات ، وأودع في النفس الإنسانية المؤَهَّلة للخلافة ما تَعرف به تلك الآيات ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[4] ، بل ما تعرف به ما في ملكوت السموات . وبيَّن الله سبحانه ذلك حينما أعجز ملائكته عن علم الخليفة آدم عليه السلام ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ**

---

(١) سورة صـ : ٢٦ .

(٢) مسلم .

(٣) مسلم .

(٤) سورة الذاريات : ٢٠-٢١ .

وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1] فسرعان ما رجع الملائكة عن ادعائهم واعتراضهم بَعدَما ﴿ . . . **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . .﴾**[2] وأذعنوا لخالقهم ، وخلعوا صفة ما تدل عليه ﴿ . . . **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ** . . .﴾ التي قد يُرى فيها العُجب ، ولزموا الأدب وقالوا : ﴿ . . **سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا . . .﴾** . وتدور الدائرة ، فإذا بالملائكة الذين قالوا : ﴿ . . . **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء . . .﴾**[3] ينزلون يوم معركة بدر ؛ ليضربوا من الكُفار كُل بَنان ، ويَضربوا فوق الأعناق . ورغم أن عدد الكُفَّار كان حوالي ألف ، كان الملائكة خمسة آلاف ليُشاركوا في سَفك الدماء!! وقد يكون ذلك لنزاعهم للحق سبحانه ، فإذا هُم يُنَفِّذون ما نازعوا فيه واستنكَروه ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾**[4]!!

بيّن الله سبحانه مقدرة الإنسان الخليفة فيما وَهَبه إياه ، فقال في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ**

---

(١) سورة البقرة : ٣٣ .

(٢) سورة البقرة : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة : ٣٠ .

(٤) سورة الأنفال : ١٢ .

مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . . .﴾[1] . والله سبحانه يصطفي من عباده من صلح مقصده ، واستقام سلوكه ، وأُمن شره ، وحسُن تعامله ، وفاض على الناس خيره ، وكان الأنبياء القدوة الحسنة في ذلك ، فهم كلمات الله التامة ، ويبين الله ذلك بما قاله في حق عيسى عليه السلام : ﴿ . . **رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ . . .﴾**[2] . فالاستعاذة بكلمات الله التامة هي الاستعاذة من مسببي الأذى الموجودين في كل الأمم ؛ لأن الكلمات التامة هم قمم الأمم وهم الرسل . والذين آمنوا برسولهم في كل عصر هم مسلمون . فأمة الإسلام تشمل المسلمين في كل الرسالات ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾**[3] وهُم المخاطبون بأنهم ﴿ . . **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . .﴾**[4] . ورغم أن الاستعاذة بكلمات الله التامة هي استعاذة كاملة ، إلا أن أعظم استعاذة هي الاستعاذة بالله منه تعالى ، كما قال معلم البشرية صلى الله وبارك عليه وآله : « . . **وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ . . .**»[5] فهو تعالى الذي بيده الخير والشر .

---

(١) سورة الأنعام : ٧٥ .

(٢) سورة النساء : ١٧١ .

(٣) سورة الأنبياء : ٩٢ .

(٤) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٥) مسلم .

مقام الخلة

﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾[1] و«**المرء على دين خليله**»[2] ، ففي هذا المقام يدرك من ارتقى إليه الأمان في اليوم الآخر ، وليس الأمن من مكر الله في هذه الدنيا ، قال تعالى : ﴿ . . **مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً** . . .﴾[3] والمراد مقام الخِلّة ، ويشير إليه ما كان من إبراهيم حين أُلقي في النار بالمنجنيق ، فقبل أن يصل إلى النار وهو في الهواء ، أتاه جبريل عليه السلام وقال له : «ألك حاجة؟» أجاب إبراهيم عليه السلام : «أما إليك فلا» قال جبريل : «إلى الله؟» قال : «نعم» قال : «فاسأله» قال إبراهيم : «علمه بحالي يغنيني عن سؤالي» وهذا هو دعاء الحال ، فكانت الإجابة من الله : ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾[4] . فهل لغير الأنبياء قدم في هذا المقام؟ ونقول بالإيجاب استناداً على قول الحبيب

---

(١) سورة النساء : ١٢٥ .

(٢) الترمزي .

(٣) سورة آل عمران : ٩٧ .

(٤) سورة الأنبياء : ٦٩ .

صلى الله وبارك عليه وآله : «**وددت أني لقيت إخواني**»[١] فالذي يبلغ درجة أن يُدعى بالأخوة للنبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، فإنه لا يبقى له من قمم الدرج إلا النبوة . والذين أشار إليهم النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله بأنهم إخوانه ، هم ليسوا من صحابته رضي الله عنهم ، ولكنهم قوم يأتون من بعده ، ومقامهم أعلى وأجل من صحابته . وكان منهم في التابعين أويس القرني الذي قال النبي صلى الله وبارك عليه وآله عنه لأصحابه : «**فمروه فليستغفر لكم**»[٢] وقال لعمر بن الخطاب : «إذا لقيته فاسأله يستغفر لك»[٣] .

الذي يرتقي إلى مقام إبراهيم – وهو مقام الخلة – يكون له من العلم ما يحيي به الميت . فإبراهيم عليه السلام لم يشك بقوله : ﴿ . . **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** . . .﴾[٤] ولا يمكن لرسول أن يشك في أن الله تعالى يحيي الموتى ، وإلا لكان سؤاله عن إمكانية الإحياء لا عن كيفية الإحياء . ولقد اجحفوا في ما نسبوه إلى رسول الله محمد صلى الله وبارك عليه وآله في قولهم : «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ**

---

(١) مسلم .

(٢) مسند عبد الله بن المبارك ، بن عساكر .

(٣) تاريخ بن خيثمة .

(٤) سورة البقرة : ٢٦٠ .

السَّلَام إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى»[1] كبرت كلمة تخرج من أفواههم . فالقرآن الذي جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله يؤكد أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ، فهل يشك محمد صلى الله وبارك عليه وآله وإبراهيم عليه السلام في أن الله يحيي الموتى؟! أفلا تعقلون؟! والسؤال إذا كان عن شك فانه يكون عن الإمكانية والاستطاعة ويكون بـ«هل» لا بـ«كيف» أي : «هل تحيي الموتى؟» كما حصل مع الحواريين إذ قالوا لعيسى عليه السلام : ﴿ . . **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** . . .﴾[2] ، ولكن إبراهيم عليه السلام سأل عن كيفية إحياء الموتى ؛ لأنه مؤمن بأن الله تعالى يحيي الموتى ، وإلا لما سأل عن الكيفية ﴿ . . **أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** . . .﴾[3] ومحمد صلى الله وبارك عليه وآله يقول أنّ عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى فهل يشك في أنّ الله يحيي الموتى؟

وإذا كان إبراهيم عليه السلام مؤمناً بأن الله يحيي الموتى ، فماذا يعني سؤال الله له : ﴿ . . **قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن** . .﴾ والإجابة هنا – كما نرى– أن الإيمان الذي سأله عنه الله سبحانه هو الإيمان بالكيفية وليس بالإحياء . والكيفية لا تعرف إلا بالمباشرة ، والذي يكون في مقام الخلة يعرف الكيفية ، ولكن

---

(١) البخاري .

(٢) سورة المائدة : ١١٢ .

(٣) سورة البقرة : ٢٦٠ .

رغم ذلك سأل إبراهيمُ عليه السلام عنها ﴿ . . **أرني كيف . . .**﴾ فقيل له : ﴿ . . . **أَوَلَمْ تُؤْمِن . . .**﴾[1] ، أي بالذي عندك من العلم بالكيفية وأنت الخليل؟ أجاب إبراهيم : ﴿ . . **بَلَى**﴾ . . أي أنا مؤمن يا رب ﴿ . . **وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . .**﴾ على ما عندي من العلم أنه منك . ﴿ . . . **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2] وباشر إبراهيم بنفسه ما أخبره الله به في كيفية إحياء الموتى ﴿ . . **وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[3] ، فحصل له اليقين « . . . **واليقين الإيمان كله**»[4] كما قال علي عليه السلام . واليقين هو الغاية في السلوك ، وبه تخرق العادة في النفس وخارجها . قال تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ . . . **ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا . . .**﴾ فكانت مباشرة إبراهيم في إحياء الموتى هي دعوتهن ، وهذه هي الكيفية والإجراءات عند العارفين ، فبعد أن علم إبراهيم سر الإحياء ، وحصل له اليقين التام ، صار الأمر عنده لا يحتاج لأكثر من كلمة ينطقها يحيي بها الموتى .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(٣) سورة الأنعام : ٧٥ .

(٤) شعب الإيمان للبيهقي .

كرامات الصالحين

ينكر الظلمانيون حدوث الخوارق من عباد الله الصالحين ولا يقرون ذلك ، وإذا شاهدوه ينسبونه إلى الجن أو الشياطين ، والاتهام بالشعبذة والدجل والسحر . ولا يدرون أنهم بذلك ينكرون قدرة الله سبحانه ، ويعظمون الجن ويعتقدون في قدرتهم ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ . . .**﴾[1] ويحقرون أنفسهم التي كرمها الله وأهَّلها للخلافة في الأرض . ولقد أنكر الكفار خرق العوائد عند الأنبياء ووصفوهم بالسحر ، وهكذا يفعل كل من يحذو حذوهم من الظلمانيين في تعاملهم مع عباد الله الصالحين . فإنّ الله تعالى تنزه أن يراه البشر وهو يفعل شيئاً بنفسه ، وجهلوا أن يدركوا أن المؤمنين هم ستار القدرة ، يفعل الله بهم ما يشاء من خرق العوائد وغيرها ﴿ . . . **يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ . . .**﴾[2] ، وهكذا يُنظَر إلى خلق عيسى عليه السلام للطير وإحيائه للموتى ، فليست هذه المخلوقات أكرم من الخليفة ، ولا يعلو عليه جن ولا شيطان ، إلا إذا أخلد

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٠ .

(٢) سورة التوبة : ١٤ .

إلى الأرض ولم يعرف قدره ورجع إلى ترابيته ، وعندئذ يكون الجن أعلى منه ؛ لأنه خلق من نار السموم ، والنار أعلى من التراب . فيمكن للجن في هذه الحال أن يشاركه في ولده وماله ، ويكون بينهم الاستكثار ﴿ . . **قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ** . . .﴾[1] وكذلك الاستمتاع ﴿ . . **اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** . . .﴾[2] . أما إذا عرف الإنسان قدره ، واتبع نبيه ، وحسن خُلقه صار من الذين ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** . . .﴾[3] وقد تتنزل عليه الملائكة ، وتبشره في هذه الدنيا بالسعادة والجنة في الآخرة ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[4] وقد يُعطى علماً لَدُنِّيّاً ، فيصدر عنه ما تعجز عن فهمه العقول .

قدرة الله في إحياء الميت مثلاً – لمن يؤمن بها – قد تكون عن طريق أحد عباده الذين اصطفى ، ولا تصدر عن الله كفاحاً ، فالله سبحانه : ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ** . . .﴾[5] . قال عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه في شطحاته ، وهو الذي

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٨ .

(٢) سورة الأنعام : ١٢٨ .

(٣) سورة يونس : ٦٤ .

(٤) سورة فصلت : ٣٠ .

(٥) سورة آل عمران : ٧٤ .

وصفه ابن تيمية السلفي «بالعالم العارف . . .» : «كل الناس وقفوا عند الكلام في القدر إلا أنا ، فقد فتحت لي فيه كوة فصرت أصارع القدر بالقدر ، فإن الجوع قدر ، والشبع قدر ، والظمأ قدر ، والري قدر ، فنصارع الجوع بالأكل ، والظمأ بالشرب .» وقد يكون قبول ابن تيمية للجيلي ومدحه له – رغم أن الجيلي منشئ الطريقة القادرية ومن قمم المتصوفة (الذين يعارضهم ابن تيمية) – كان لاتفاقه معه في المذهب ، فكلاهما كان على مذهب أحمد بن حنبل . قال الجيلاني (رضي الله عنه) :

وحلّلت رمزًا كان عيسى يحلّه

به كان يحيي الموتى والرمز سرياني

ولَم ينكرْ ابن تيمية الذي يُحسَب مِن المُجَسِّمَة ، أعداء أهل العرفان من المتصوفة ، ولا تلميذه ابن قيم الجوزية شطحات البسطامي (رضي الله عنه) التي كانت أكبر من هذه حيث قال : «سبحاني» بل أثبتاها وأقرَّاها .

إذا كان الطب من العلوم ، والقصد منه علاج المرضى وتحصيل الشفاء ، فالذي يرتقي إلى مقام إبراهيم يكون فعله في هذا المجال أكثر من ذلك ، فهو يفوق مرحلة الشفاء إلى إحياء الموتى ، فلا يُفصَل علم الطب عما جاء به المعلم صلى الله وبارك عليه وآله ﴿ . . **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** . . .﴾[1] ، فقد مس صلى الله وبارك عليه وعلى آله

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

على مكسور فجبر عظمه ، وتفل على عين علي عليه السلام فزال ما بها ، ورَدَّ عين قتادة بعد أن فُقِئت ، ولا تحصى معجزاته صلى الله وبارك عليه وعلى آله ، ولا يسع المجال إلا لذكر اليسير من هذه المعجزات ، وليجهد الإنسان نفسه في معرفة المدخل إلى ذلك . . إنه العلم النفيس «إن من العلم كهيئة المكنون»[١] وهو المضنون به عن غير أهله . وأهله هم أهل التقوى والله ﴿ . . . **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾[٢] . فالتقوى هي التي بها يأتي فيض العلم ﴿ . . **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّه** . . . ﴾[٣] فهل كل من يحفظ القرآن عنده علم بالقرآن؟ حفظ القرآن ليس هو حفظ حروفه ، وقد جاء الحديث : «**أكثر منافقي أمتي قُرّاؤها**»[٤] فالعالِم بالقرآن هو الذي يُقال عنه الحافظ للقرآن ، وهو يتعامل به في كل حياته ، ولا يحتاج إلى الطبيب ، فعنده من العلم ما تُخرَق به العادة في كل مناحي الحياة ، وليس في الطب وحده ، ولقد ذكرنا منها الدرع الواقي من ذوات السموم .

وهذا العلم لا يبديه للخلق من خصه الله به ؛ لصعوبة تصديقه فيما يبديه ؛ لأنه قد يأتي بأفعال – لعلمه بنتائجها – مخالفة لمجرى الأحداث الطبيعي وقوانين المجتمع المعروفة ؛ فلا

---

(١) تفسير الألوسي .

(٢) سورة المدثر : ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٤) مسند أحمد .

يقبلها المجتمع لغياب التعليل الذي يعرفه الناس وجرت به العادة . ولقد صَدَّقَ موسى عليه السلام الخضر فيما ادعاه في قتل الغلام ؛ فمن يُصَدِّق أحداً اليوم إذا ادعى مثل ادعاء الخضر ، ولو كان في أفعال لا تعد من الجرائم؟ إنه يحتاج أن يكون الناس كلهم موسى ليصدقوه ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ**﴾[1] ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ . . .**﴾[2] . لذلك فإن أهل اليقين أقل الناس كلاماً ، ولا ينثرون الدرر في وجوه الخنازير . وكذلك هم أكثر الناس تصديقاً لما يقال لهم ، ولا يكذبون أحداً ، بل يسلمون حتى ينجلي الأمر ، فالله سبحانه لم يبخل بعلمه على خليفته . والتسليم هو القبول بما يخالف الإرادة ولا يقبله العقل ؛ ولذلك قالوا : «التسليم ولاية والاعتراض جناية» .

(١) سورة الإنشقاق : ٢٢ .

(٢) سورة يونس : ٣٩ .

النبي الأُمّي

لقد جهل من ظن أن جبريل كان معلماً لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . فهو لم يتخط قدره في كونه وحياً مِن قِبل الله لرسوله . فجبريل عليه السلام أعلى مقامه سدرة المنتهى لا يتخطاها ، ومحمد صلى الله وبارك عليه وآله مقامه قاب قوسين أو أدنى ، فأين مقام جبريل من مقام محمد صلى الله وبارك عليه وآله؟! وإذا قيل : إن جبريل كان يأتي بالوحي من عند الله ، فذلك حق ، ولكن الذي يأتي به جبريل هو من مقام سدرة المنتهى ، وهي منتهى الأرواح .

كان القرآن عند محمد صلى الله وبارك عليه وآله قبل نزول الوحي إليه ، ولكنه أُمر بألا يتكلم به قبل ذلك . قال تعالى : ﴿ . . . **وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ** . . . ﴾[1] ؛ وذلك لأن محمداً صلى الله وبارك عليه وآله أخذ القرآن كله على قلبه مما فوق السدرة ، قال تعالى : ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[2] ، فإذا تكلم به فلا طاقة لروح أن

(١) سورة طه : ١١٤ .

(٢) سورة القدر : ١ .

تأخذ منه ، ولكن الوحي الجبرائيلي الذي من السدرة – التي هي منتهى الأرواح – يمكن للأرواح أن تأخذ منه على وسع كلٍّ منها وهو المخصوص بالرسالة . فالقرآن يتنزل فرقاناً على مكث ، قال تعالى : ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾[1] وهذا الموحى به إليه هو الذكر المحدث الذي تقوم عليه الرسالة ، قال تعالى : ﴿**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَـنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ**﴾[2] . لذا عندما قال له جبريل في أول نزوله عليه : «اقرأ» لم يمد له صحيفة ليقرأ منها ، فالأمر لا يتعلق بكتابة الحروف وقراءتها ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . . .**﴾[3] فَرَفَضَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وقال : «**ما أنا بقارئ**»[4] – وهي لا تعني الجهل بمعرفة الحروف ، بل تعني الرفض للقراءة – لأنه قيل له : ﴿ **. . . وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ . . .**﴾[5] . لكن بعد نزول الوحي يصبح القرآن فرقاناً ؛ ليقرأه الرسول صلى الله وبارك عليه وآله ﴿ **. . عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ . . .**﴾ وينزل تنزيلاً وليس قبل ذلك ، لذا قال

---

(١) سورة الإسراء : ١٠٦ .

(٢) سورة الشعراء : ٥ .

(٣) سورة العنكبوت : ٤٩ .

(٤) البخاري .

(٥) سورة طه : ١١٤ .

لجبريل : «**ما أنا بقارئ**»[1] أي لن أقرأ ، إنما أنت الذي تقرأ ، فقرأ جبريل عليه السلام : «**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[2] . فالقرآن الذي تقوم به الرسالة هو ما يتنزل به جبريل عليه السلام ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ . . .**﴾ وهو الذي يبدو لأسباب ومناسبات ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . .**﴾[3] .

فلا يحق لأحد أن يقول إن النبي صلى الله وبارك عليه وآله كان لا يعرف القراءة والكتابة . بل غاية ما يقول : إنه ليس لأحد فضل عليه بتعليمه القراءة والكتابة ، إذ لا أحد يستطيع أن يجزم أن الله لَم يُعَلِّمْه ذلك ، فالقراءة والكتابة ليست علوماً خارجة عَن دائرة علم الكتاب الذي لَم يُفَرِّط في شيء ، وإن كان قبل نزول القرآن لا يكتب ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[4] . ويشار إلى علمه بالكتابة بإشرافه على كتابة الوحي وقوله : «**لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف**»[5] ولا أرى في الذي يقول بغير ذلك إلا أنه يسعى لإثبات نقص

---

(١) البخاري .

(٢) سورة العلق : ١ .

(٣) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٤) سورة العنكبوت : ٤٨ .

(٥) سنن الترمذي .

علم النبي ، وأن الفائدة التي سيجنيها من ذلك هي الشقاء لا غير ﴿ . . **إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ** . . .﴾[1] .

والذي يستند إلى قوله تعالى : ﴿ . . . **النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** . . .﴾[2] ليدلل على عدم معرفة النبي صلى الله وبارك عليه وآله بالقراءة والكتابة ، فقد أخطأ في استدلاله ؛ فإن وصْفه بالأمي هو نسبة إلى قومه الأميين . فأهل الكتاب كانوا يدعون العرب بالأميين ؛ لعدم وجود كتاب أنزل إليهم قبل محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، قال تعالى : ﴿**وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ**﴾[3] وقال تعالى : ﴿ . . **لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ** . . .﴾[4] فكان أهل الكتاب يقولون كما بيَّن الله سبحانه وتعالى : ﴿ . . **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** . . .﴾[5] وقال تعالى : ﴿ . . **وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ** . . .﴾[6] وقال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي**

---

(١) سورة غافر : ٥٦ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧ .

(٣) سورة سبأ : ٤٤ .

(٤) سورة السجدة : ٣ .

(٥) سورة آل عمران :٧٥ .

(٦) سورة آل عمران :٢٠ .

الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ . . .﴾[1] ، فهو أمي نسبة إلى قومه قبل نزول الكتاب (القرآن) إليهم . فالأمية لا تعني عدم معرفة القراءة والكتابة ، فالعرب كان فيهم كُتّاب الوحي ، وكانت لهم معلقات في الكعبة ، «**وروي أنّ عمر بن الخطاب أتى إلى النبي صلى الله وبارك عليه وآله بكتاب من اليهود فقرأه النبي صلى الله وبارك عليه وآله . . . فقال له النبي صلى الله وبارك عليه وآله أمتهوكون يا بن الخطاب . . . والذي نفسي بيده لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني**»[2] ولكنه لم يكن من كُتّاب الوحي فقد كان يسكن هو وأبو بكر (رضي الله عنهما) في السُّنح خارج المدينة . فالأمية إنما تعني عدم العلم بالكتاب المنزل ﴿**وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا . . .﴾**[3] ؛ والأميون في أهل الكتاب هم الذين ليس لديهم العلم بالكتاب المنزل إليهم ، قال تعالى : ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾**[4] .

ذهب قوم إلى إنكار نبوة محمد صلى الله وبارك عليه وآله قبل نزول الوحي إليه ، وتطرف بعضهم فكفّر من يقول بذلك . فإن كانوا يقرون بأفضليته على سائر النبيين لقوله تعالى :

---

(١) سورة الجمعة :٢ .

(٢) مسند أحمد .

(٣) سورة سبأ : ٤٤ .

(٤) سورة البقرة : ٧٨ .

﴿ . . وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْض . . . ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض . . . ﴾[2] ويقرون رغم أنفهم أن عيسى عليه السلام كان نبياً وهو يلتقم ثدي أمه عليها السلام ، فلمَ الإنكارُ على نبوة محمد صلى الله وبارك عليه وآله منذ بروزه في عالم الحس؟ هل نزل جبريل على عيسى عليه السلام وهو في حضن أمه قبل أن يقول ﴿ . . إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . . . ﴾[3]؟ فماذا يقولون عن عيسى عليه السلام في قوله ﴿ . . آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ وهو لا يزال طفلاً رضيعاً؟ فلم الإنكار في أن الكتاب كان عند محمد صلى الله وبارك عليه وآله قبل نزول جبريل عليه؟ ولم الإنكار في أنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد؟ أما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . . . ﴾[4]؟ فهل لم يصلِّ عليه الله تعالى إلا عام ٦١٢ م؟ وكيف أُخذ العهد على الأنبياء السابقين بالإيمان به إن لم يكن نبياً؟ وبذلك فهو نبي منذ ولادته – بل قبل اكتمال خلق آدم عليه السلام – وليس بعد بلوغه سن الأربعين ، وقد جاء عنه صلى الله وبارك عليه وآله : «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ

---

(١) سورة الإسراء : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٣ .

(٣) سورة مريم : ٣٠ .

(٤) سورة الأحزاب : ٥٦ .

عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ . . .»[1] . ولكن هناك من اتخذ لشقائه الجرأة على رسول الله مذهباً ؛ لينال من شرف القدر المحمدي ، ليجعل لنفسه بذلك مكانة يشار عليه بها ؛ لأنه لا بد أن يجد من يتصدى له من العلماء العارفين أحباب النبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وذلك التصدي هو الذي يكسبه مكانة ، فيظن البعض أنه من العلماء لرد العلماء عليه ؛ وتلتف حوله نفوس مريضة من الذين ﴿ . . **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا . . .**﴾[2] ﴿ . . **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . . .**﴾[3] ويقوم مذهبه على الإنكار والهجوم التكفيري الذي هو أولى الناس به .

إن الدين أخلاق وحسن معاملة ، ويفتقد الأخلاق كل من يحاول الانتقاص من قدر أي إنسان من بني آدم الذين كرمهم الله ، ناهيك عمن يحاول ذلك من القدر الشريف وهيهات .

---

(١) مسلم .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٩ .

الغَيبة

لابد من الإشارة هنا لتبيين قوله تعالى : ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾[1]) وقوله تعالى : ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[2] لتوضيح الأمر لمن يشكل عليه تناغم ذلك مع ما نقول .

نقول بحول الله إن الضلال المشار إليه في الآية الأولى هو ليس كما قال بعض المفسرين : «أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَلَّ فِي شِعَابِ مَكَّة ، وَهُوَ صَغِير ثُمَّ رَجَعَ . وَقِيلَ : إِنَّهُ ضَلَّ وَهُوَ مَعَ عَمّه فِي طَرِيق الشَّام ، وَكَانَ رَاكِبًا نَاقَة فِي اللَّيْل ، فَجَاءَ إِبْلِيس فَعَدَلَ بِهَا عَنْ الطَّرِيق ، فَجَاءَ جِبْرَائِيل فَنَفَخَ إِبْلِيس نَفْخَة ذَهَبَ مِنْهَا إِلَى الْحَبَشَة ، ثُمَّ عَدَلَ بِالرَّاحِلَةِ إِلَى الطَّرِيق»[3] ، فليتأمل القارئ أن جبريل نفخ إبليس نفخةً ذهب منها إلى

---

(١) سورة الضحى : ٧ .

(٢) سورة الشورى : ٥٢ .

(٣) تفسير بن كثير .

الحبشة!! ومتى يرجع؟ وكيف به الاستطاعة للوصول إلى جميع بني آدم في الأرض كلها إذا كان يمكن إبعاده من مكان إلى آخر؟؟

إن هذا القول لا يستقيم ، إلا أن يكون إبليس جسداً محدد المعالم!! وهذا من ضحالة العقول وليس من العلم . فالضلال المشار إليه هو منتهى مدارج السالكين ، الذين يصل بهم الرقي في السلوك والحب الإلهي إلى ما يطمس عندهم رؤية غير الحق ، فلا يرون في الكون فاعلاً غير الله ، وليس لأحد حول ولا قوة . فتسقط عندهم نسبة الأفعال إلى العباد ، فتنتفي السيئات والحسنات عندهم لنسبة الفعل إلى الله ، فلا يؤاخذ مسيىء عندهم بجرمه ، ولا يشكر محسن بإحسانه ، وهي حالة الحيرة التي تنتفي معها استقامة المجتمع . وإذا تمكن هذا الحال من العبد فإنه يرى فعل الله في الكون وفي نفسه ، بل لا يرى لنفسه ولا لِغَيرِه فِعلاً ، فالفاعل عنده هو الله ، وقد يقول : «سبحاني» كما قال البسطامي (رضي الله عنه) . وهي حال السكر أو الغيبة عن النفس ، وتسمى السحق والمحق والطمس ، والفناء في المحبوب . ومن يكون فيها يُسقطُ التكليف عن الناس وعن نفسه ، ويغفل عن الأسباب ﴿ . . . **وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِه لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾[1] فلا شرع عنده إلا بعد أن يصحو من هذه الحال ، ومنهم من لا يصحو . وهذه الحال لا تحمد إلا إذا كان صاحبها

(١) سورة يوسف : ٣ .

محفوظاً من الإضرار بالناس في حال غيبته . وهي حال لا تتكرر لأحد مِن العارفين مرتين ، إلا عند صاحب الزمان عليه السلام ولكن تختلف الغيبة الثانية عنده حيث لا يغيب عن التشريع . يقول أبو مدين(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) واصفاً الغيبة الأولى :

فإنا إذا طبنا وطابت نفوسنا
وخامرنا خمر الغرام تهتكنا
فلا تلم السكران في حال سكره
فقد رفع التكليف في سكرنا عنا

والنبي صلى الله وبارك عليه وآله كان قبل الوحي والتكليف بالرسالة لا يرى فاعلاً في الكون غير الله ، وهو منتهى مقام العارفين . قال تعالى : ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾[1] فنفى سبحانه الضلال عن النبي مطلقاً وذلك بقسم ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى**﴾[2] وليس الله سبحانه بحاجة إلى أن يقسم لخلَقه على أمر ليصدقوه ، ولكن ذلك إنما كان لقوة إظهار صحة الحال المحمدي في كل أطواره . والعارفون بعد الصحو يرون الفعل من العبد ، ويعلمون أنه من الله فتنتابهم الحيرة . وقد جاء عنهم : «زدني بفرط الحب فيك تحيرا» ، فالحيرة عندهم جاءت نتيجة للعشق الإلهي . وفيه قال الحلاج : « أنا من أهوى ومن أهوى أنا» وقال :

---

(١) سورة النجم : ٢ .

(٢) سورة النجم : ١ .

عـــــجـــــبتُ منك ومنّـــي
يـــا مُـنْـيَـــةَ الْمُـتَـــمَـــنِّـــي
أفنيـتـــني فـــيـك عـنـي
حـــــتى ظـنـنـتُ أنّك أنّـــي

والنبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وهو في مقام المعرفة الإلهية التي قد تعرف بالحيرة ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى**﴾ جاءه الوحي «**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . . .**» . للقيام بالرسالة بعد النبوة ، فقوله تعالى : ﴿ . . **مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ . . .**﴾ لا يعني وصف النبي بالجهل ، بل يدل على شهود الواحدية في الفعل الإلهي الذي لا تُرى فيه التعددية ، فتجيء الرسالة والوحي لتبيين الكثرة في الوحدة ؛ حتى لا تكون الغفلة عن الأسباب ونسبتها إلى العباد ، فتتميز الأشياء بنوره ﴿ . . **وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا . . .**﴾ عن طريقك بقيامك بهذا الأمر ﴿ . . . **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ برسالتك هذه ﴿ . . . **وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[1] بعدم نسبة الأسباب إلى العباد ؛ لشهودك الفعل الإلهي في كل شيء ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[2] .

النبي صلى الله وبارك عليه وآله يتلقى الوحي في حالة

---

(١) سورة يوسف : ٣ .

(٢) سورة الصافات : ٩٦ .

كونه بشرًا مرسلاً للناس كافة ، وبيَّن لهم أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض . ولكن الناس جهلوا قدرهم بأنهم خُلفاء الله في الأرض ، فظلَموا أنفسهم ﴿ . . **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1] . ولَم يعطوا ما أفاء الله به عليهم حقَّ شُكره ﴿**وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . .**﴾[2] . وعجزوا عن أداء الشكر لما فضَّلَهم به عن بقية المخلوقين ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[3] .

---

(١) سورة النحل : ١١٨ .

(٢) سورة الأنعام : ٩١ .

(٣) سورة الإسراء : ٧٠ .

الأخذ عن معلم

جاء في الأثر : «**تعلَّموا اليقين بمجالسة أهل اليقين**»(١) وتَعَلُّم اليقين يأتي بالممارسة ، فتعلُّم الأبناء اليقين يكون عن طريق إرشاد آبائهم ؛ إذ لا بد من مُعَلِّم لكُل طالب علم ﴿ . . . **الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾(٢) ولاَ بد أن يكون المعلم على درجة من الصدق والمعرفة . ولا تظن أن من كان على تقوى لا يحتاج إلى معلم ، فطَلَبُ المُعَلِّم شرطٌ ، فالله سبحانه وصَّى الذين آمنوا بالتقوى ، كما وصى أهل الكتاب من قَبل ، قال تعالى : ﴿ . . . **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّه** . . .﴾(٣) . ولكن طلبَ العلم لابد فيه من وجود المُعَلِّم لِمَن يلتَزِم بوصية الله سبحانه بالتقوى ، فقد وصَّى الله كُل مَن يتقي الله أن يكون مع الصادقين ، فالتزام المُعلِّم الصادق شرط في طلب العلم ، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

---

(١) البحر المديد .

(٢) سورة الفرقان : ٥٩ .

(٣) سورة النساء : ١٣١ .

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1] فإنّ في ملازمة الصادقين اكتساب صفاتهم في السلوك الذي به يتأتى اليقين ، وهناك فرق شاسع بين التعلم بمرافقة أهل العلم ، والتعلم بكثرة المطالعة وحفظ الكتب . فبمرافقة المعلم يكتسب اليقين ، وكيفية أخذ العلم والسلوك والأخلاق مباشرةً ومشاهدة ، لا قراءةً وحفظاً فقط ، فكثرة القراءة والحفظ لا تنتج عالماً ، والفرق شاسع بين العالم ووعاء العلم . فهناك من يحفظ كتاب الله ، ويأكل أموال الناس بالباطل . وجاء في الحديث : «**إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا**»[2] فالتقوى هي المطلب الأول الذي يأتي به فيض العلم ، وترتكز على العمل بما يعلم المرء لا بكثرة ما يحفظ من العلوم . والمُعَلِّم هو المَطلَب الثاني ، وهو شرط لكل طالب علم ، إلا الأنبياء عليهم السلام ؛ لأخذهم العلم عن الله سبحانه ، فهو الذي يؤدبهم ويعلمهم ؛ لذلك فإن يقينهم لا يقاس بالآخرين . وأخذ العلم من الكتب دون معلم يفتقد تعلم السلوك من الأدب والتواضع والصبر والصفح والإحسان والكرم ومحاسن الأخلاق . وهي المقصد من العلم ، بل هي مما بعث به محمد صلى الله وبارك عليه وآله . قال الحكيم الشاعر أحمد شوقي :

«إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا»

---

(١) سورة التوبة : ١١٩ .

(٢) مسند أحمد .

وقد ردد النبي صلى الله وبارك عليه وآله قول لبيد : «**ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . .**»[1] فإن من الشعر لحكمة .

ذُكِرَ أنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله كان عائداً من إحدى المعارك ، فهبت ريحٌ عاصفة ، فقال صلى الله وبارك عليه وآله : «**لا تخافوها ، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار رفاعة بن زيد بن التابوت**»[2] بالمدينة ، ولما سكنت الريح تَفَقَّدَ الناس أشياءهم ، فقال النبي صلى الله وبارك عليه وآله : «**أين ناقتي؟**» فقال بعضهم : «كيف يزعم أنه يعلم الغيب ، ويحدث بموت رفاعة بالمدينة ، ولا يعلم مكان ناقته!؟» فقال النبي صلى الله وبارك عليه وآله : « . . . **هي في الشعب المقابل لكم ، وقد تعلق زمامها بشجرة**»[3] فهرع الناس إلى ذلك المكان ، ووجدوا الناقة كما قال صلى الله وبارك عليه وآله وأتوا بها . وبدأ الناس يسألون النبي صلى الله وبارك عليه وآله عن السلع التي ترخص والسلع التي تغلو ، فنزل قول الله تعالى ﴿**قُل لاَّ أَمْلكُ لنَفْسِي نَفْعـاً وَلاَ ضَـرّاً إلاَّ مَـا شَـاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَـيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ . . .**﴾[4] . قال إبن عباس (رضي الله عنه) : «الغيب هنا يعني النفع والضر» ، ولا يفهم من

---

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) تفسير بن كثير .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي .

(٤) سورة الأعراف : ١٨٨ .

ذلك أن الله سبحانه لا يخص أحداً من خلقه بنفحة علم منه . ففي الآية نفسها استثناءٌ في عدم العلم بالنفع والضر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ . . . **إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ** . . .﴾[1] . وإن في قصة الخضر عليه السلام ما يشير إلى ذلك ، فقد قام بأفعال ليس لها أسباب شرعية ، معللاً ذلك بما سيحدث مستقبلاً ، وهو أمر لا تقره شريعة ، ولا يقبله عقل إلا عند أصحاب التسليم ، وهو علم بالنتائج دون توضيح الأسباب المؤدية إليها . فقد قَتَل غلاماً بحجة أنه إذا عاش سيرهق أبويه بطغيانه وكفره . وإياك أن تظن أن ما كان عند الخضر من علم لم يكن لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله! فأين الخضر من الذي عنده علم الكتاب الذي ما فرط في شيء! فإن محمداً صلى الله وبارك عليه وآله كان رسولاً يؤسس قواعد الشرع ، وهو التعامل بين الناس ، لا إظهار الخوارق والمعجزات ، وإن كانت تحدث منه أحياناً لظروف تقتضيها . قال تعالى : ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** . . .﴾[2] فالمعجزات التي كانت تصدر عنه لم يكن القصد منها الدعوة إلى رسالته ، بل لأسباب أخرى يتطلبها الوقت ، ولم تكن دعوته صلى الله وبارك عليه وعلى آله إلا ﴿ . . . **بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ**

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٩ .

الْحُسنَة . . .﴾[1] **﴿ . . . فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . .﴾**[2] فإن الرسل صلوات الله عليهم كلهم جاءوا لتأسيس المجتمعات الفاضلة والرقي بالإنسانية في أخلاقها . ولم يكونوا حكاماً أو رؤساء أو أصحاب إكراه أو إرهاب .

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

أخطاء وخطايا بحقّ النبي

إنّ العلم لا بد للإنسان أن يكون له معرفةٌ بجُزئيَّة منهُ ، وإلا كان في حُكم العَدَم عنده . ولا يُمكن أن يكون هناك اسمٌ لشيءٍ لَم يُعرَف قطّ إلاَ العدم . ولينظر الإنسان أين هو من المعلم الذي يبين له كيفية الترقي وأخذ العلم ولكن ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون**﴾[1] فنجد أنّ بعض مَن يُشارُ إليه من العلماء هو الذي أكثرهم جرأة على النقد لأفضل خلق الله ، فينسب إليه صفاتاً لا يرضاها لأبيه ولا لنفسه ولا لشيخه! ولا أظنه يقبل قولَك إذا قُلت لَه : إنّ أباك معه شيطان ، وهو يعبس في وجه الفقير الأعمى . ورغم ذلك لا يرى بأساً في أن ينسب ذلك لخير خلق الله ؛ دالاً بذلك على فقدان محبته له وإن إدَّعاها . إذ يستحيل أن يكون المحب ناقداً ، فعين الصَّبِّ عن كل عيب كليلة . وإذا فقد الحب وبدأ النقد استحال الأخذ عنه . قالوا :

من ما عنده محبة
ما عنده ولا حبة

(١) سورة يس : ٣٠ .

فالعلم لا يؤخذ إلا من كامل الصفات الحسنة . والناقد يرى في نفسه أفضلية على الذي ينتقده ، حتى ولو كان يعتمد في نقده على كلام أناس آخرين يرى هو فيهم الصدق ، فبتصديقه لهم صار منهم ؛ لإثبات نقص في المعلم ، ويكون قد وضعهم فوقه وانتقص من قدره ﴿ . . . **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[1] . وكيف يصح للمتعلم انتقاد معلم الإنسانية ، وأفضل السلالة البشرية ، وينتظر من الناس أن تصفه بالعلم على ذلك وهو ما يحدث اليوم! فالمعلم بنص القرآن هو محمد صلى الله وبارك عليه وآله ﴿ . . . **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . . .**﴾[2] ، ﴿ . . . **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا . . .**﴾[3] ، وهو الأسوة الحسنة في السلوك ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . .**﴾[4] . والله سبحانه يقول : ﴿ . . . **فما أنت بملوم**﴾[5] فهل أقر بذلك الناقدون اللائمون فيما ينسبونه له في أسرى بدر ، وزوجة زيد ، وطوافه الليل كله على نسائه بغسل واحد ، ووجود شيطان معه يأمره ، ونسيانه القرآن حتى يذكره إياه شخص مبهم يرفع صوته

---

(١) سورة غافر : ٧٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٩ .

(٣) سورة الحشر : ٧ .

(٤) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٥) سورة الذاريات : ٥٤ .

بالقراءة ليلاً ، وعبوسه في وجه أعمى لا يبصر ، جاء يسأله عما بعث به وهو صالح الأخلاق ، وقوله على إبراهيم عليه السلام إنه كذب . . .؟ ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل قد تجد مِن بعض مَن ينتسبون إلى ما يدعى بـ«رابطة العلماء الشرعيين» من لا يصدق النبي فيما يقول!! بل قد يذهب إلى درجة السب للذات الشريفة صلى الله وبارك عليه وآله!! . فبينما النبي صلى الله وبارك عليه وآله يقول : «**أنا خيار من خيار إلى خيار**»[1] يقول له : لا فأنا لا أصدق بهذا ، بل إن أبويك في النار ، كما جاء في ما صححه الألباني!!! فأي عدم تصديق وسب وشتم أقبح من ذلك؟ وهل سُب إنسان بأقبح من سب أبويه؟؟ .

الله سبحانه من كرَمِه أسبَغَ على الناسِ نعمَهُ ظاهِرَةً وباطِنةً ، والعِلمُ مِن أهمِّها ، فلَم يَبخَل جلَّ جلالَه على الناس بعِلم ، وهو الجواد . وهناك مَن أشرقت في نفسه نفحات من نور النبوةً ، وارتقى في سُلَّم المعرفة ، وسما بِنفسهِ حتى كان يمشى على الماء ، وتخاطبه وتتفاعل معه الأكوان ، من حيوان ونبات وجن وحجر وأفلاك ، وكذلك الموجودات العدمية كالمرض والنوم والصفات والأعراض . وليست تلك هي الغاية ، فمن وقف عندما يرى خرقاً للعادة ، فقد فاته من العلم ما يحسب ما وصل إليه خسران مبين . فطَلَبُ العِلمِ مِن المَهد إلى اللَّحد ؛

---

(١) تفسير حقي .

وليس المقصود بطلب العلم أن يكون الإنسان وعاءً للعلم ، بل عليه العمل بما يعلم ، وإلا كان كالحمار يحمل أسفاراً ، فعلى الناس أن ينظروا كيف يعملون فيما يعلمون ، والمنتهى عند الله سبحانه ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾[1] حيث لا نهاية ، والدليل في ذلك هو المعلم الحبيب صلى الله وبارك عليه وآله ، الذي إذا أراد الحق أن يقسم بربوبيته أضافها إليه ﴿**فَلا وَرَبِّكَ . . .**﴾[2] فلا ينبغي أن يفصل أحد فرعاً من فروع العلم عن المعلم ، فإليه يرد العلم كله ﴿ . . . **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ . . .**﴾[3] ومَن يظن غير ذلك فقد ظلم نفسه ، ومقام المرء حيث يضع نفسه ، والعزيز مَن عزّ مقامه ورفعت درجته وملكه في الآخرة ﴿ . . . **وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**﴾[4] . وقد ظهَرَ كمالُ جودِهِ في حبيبه محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، وأفاضَ عليه بِعلمه .

قد يعجز الخلق عن إدراك سَعَةِ الجودِ الإلهي والفيض الرباني على حبيبِه بِعلم الكتاب الذي يقول فيه تعالى : ﴿ . . . **مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ . . .**﴾[5] وهذا العِلم لا

---

(١) سورة النجم : ٤٢ .

(٢) سورة النساء : ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٤) سورة الإسراء : ٢١ .

(٥) سورة الأنعام : ٣٨ .

شكّ لا يخرُج عنه شيءٌ من الأكوان ، فهو الإدراكُ التّامُ بكُلِّ ما في الوجودِ من المعاني والمَحسوساتِ والأرواحِ والأجساد ، وما كان وما سيكون . ولكن هناك علمٌ اختَصَّ الله سُبحانه به محمداً صلى الله وبارك عليه وعلى آله ، ولَم يكُن لِغَيرِه ، وهو العِلمُ بِما في نَفسِ الله سُبحانه ، وهو غيبُ الغَيب ، ولكنه محظور على بقية الخلق . قال تعالى : ﴿ . . . **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** . . .﴾[1] . ودلَّ الله سُبحانه وتعالى على استثناء محمد صلى الله وبارك عليه وآله من بقية الخلق ، وذلك بقوله : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّه** . . .﴾[2] لأن محمداً حق ﴿ . . . **وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . .﴾[3] ، وأشارَ الحبيبُ صلى الله وبارك عليه وآله على ذلك بحديثه : «**إن الله تبارك وتعالى يُحِبُّ** . . .»[4] ؛ «**يا فاطِمُ إن الله يرضى لرضاك ويغضَبُ لغضبك**»[5] ، وقد قال صراحةً : «**أنا مدينة العلم**»[6] فهو يَعلَمُ ما يُحِبُّهُ اللهُ وما يَكرَهُه وما يغضَبُ له وما يرضاه ، وليس فوق ذلك معرفة . والله سبحانه يستحيل عليه الكراهة ، فهو المُريد ،

---

(١) سورة آل عمران : ٣٠ .

(٢) سورة الفتح : ١٠ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٤) شعب الإيمان للبيهقي .

(٥) مجمع الزوائد .

(٦) المستدرك .

وإذا كره شيئاً استحال وجوده . . قال تعالى : ﴿ . . . **وَلَـكن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾[1] ؛ فـلأن الله سـبـحـانه كـره انبـعـاثهم لـم يكُن ذلك ، فلم يخـرج المنافقون للقتال مع المسلمين . قال تعالى : ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالًا** . . .﴾[2] . ولكنه سبحانه وتعالى يغضَب ويرضى .

(١) سورة التوبة : ٤٦ .

(٢) سورة التوبة : ٤٧ .

محبة الله للنبي

الغضَب والرضى هما الباعثان للخوف والرجاء . والخوف والرجاء هما حداة السير للسالكين إلى الرقي إلى الدرجات العُلا ، والسمو الروحي ، والطمع في القُرب الإلهي الذي يُفجِّر في الإنسان طاقة المعرفة التي بها يتأهل لما خُلِق له ، وهو علمه بأنّ لهُ خلافة الله في هذه الأرض ، وعليه التخلُّق بأخلاق الله . والخوف المَقصود ليس هو الخوف من العِقاب ، بل الخوف من أن يُحرَم مَعية أهل القُرب ، فيُشرِف على مبادئ معرفة الحبيب الأعظَم محمد صلى الله وبارك عليه وآله وما جاء به من الرسالة ، فيُدرِك شيئاً من عظَمة بعثته صلى الله وبارك عليه وآله التي بينها في قوله : «**إنما بُعِثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1] ، فالقصد من بعثة الرسول الأعظم صلى الله وبارك عليه وآله هي إتمام صالح الأخلاق ، ومن يقول بغير ذلك فقد جهل بعثته . قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**إنَّ الْمُؤْمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[2] وقال أيضاً :

(١) مسند أحمد .

(٢) سنن الترمزي .

«**أَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا**»[1] ، فكان الحبيب الأعظم محمد صلى الله وبارك عليه وآله تُرجُمان الحقِّ في الأخلاق ، حتى مدَحَهُ مَن بَعَثَه فقال له : ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2] وعَبَّرَ عَن حُبِّه له قائلاً : ﴿ . . . **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** . . .﴾[3] وتحمَّل عنه عبء الرسالة فيما أرسَلَهُ به ، فقال له : ﴿ . . . **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ** . . .﴾[4] وصار وكيلاً له فيها ، وقال له : ﴿ . . . **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾[5] ، فلم يُكلفه عنتاً ، وقال : ﴿**طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[6] ، ثُم يُذهب عَنه الحزن مما يَصدر من العباد من الصّدود ؛ فيقول له : ﴿**وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً** . . .﴾[7] ، ويُزيل عَنه هَمَّ الذين استَغنوا عَن الرِّسالة كي لا يُشقي نفسه بالتصدي لهم ، كالمُتَكَبِّر الذي كان يرى في التِفاتِ النبي صلى الله وبارك عليه وآله عنه ، إلى الأعمى الذي جاءه ، تقليلاً

---

(١) سنن الترمزي .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة الطور : ٤٨ .

(٤) سورة النور : ٥٤ .

(٥) سورة الأنعام : ١٠٧ .

(٦) سورة طه : ١-٢ .

(٧) سورة آل عمران : ١٧٦ .

لشأنه ، فاستغنى عن الاستماع للنبي صلى الله وبارك عليه وآله ، وعبس وتولى ، فيواسي رَبُّ العزَّة نَبيَّه قائلاً ﴿**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى**﴾[1] أي لا تحزن على عدم هدايته . قال تعالى ﴿**لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . . .**﴾[2] وقال : ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**﴾[3] ويريح باله بعدم الحرص على هداية القوم وتولى ذلك عنه سبحانه ﴿**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ . . .**﴾[4] ﴿**. . . فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ . . .**﴾[5] والذي يلوي رأسه ويصُد عن محمد صلى الله وبارك عليه وآله فإنّ الله – لحبه لمحمد وأخلاق محمد – لن يغفر له ، ولو استغفر له محمد صلى الله وبارك عليه وآله على الرغم من قوله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ . . .**﴾[6] قال تعالى : ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ**

---

(١) سورة عبس : ٥-٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(٣) سورة الكهف : ٦ .

(٤) سورة النحل : ٣٧ .

(٥) سورة فاطر : ٨ .

(٦) سورة الأنفال : ٣٣ .

﴿تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] على الرغم مما أعطاه من الشفاعة ؛ ذلك لأن الشفاعة للمذنبين ، وهؤلاء مستكبرون ، فمعصيتهم كمعصية إبليس وهي الاستكبار ، فليس لها مغفرة .

القرب إلى الله لا يكون إلا بالتقرب إلى رسول صلى الله وبارك عليه وآله ﴿ . . وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ . . .﴾[2] ، فبالمجيء إليه ينتفي الاستكبار ، ويظهر التسليم الذي به يثبت الإيمان . قال تعالى مخاطباً نبيه : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ . . .﴾[3] فنفى سبحانه الإيمان عن هؤلاء ﴿ . . . حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا . . .﴾ وإذا حصل الإيمان والتسليم كانت الشفاعة التي لا ترد ، والتي لا تكون لمستكبر . وما كانت الرسالة تكليفاً له بقدر ما هي لإرضائه ﴿ . . . وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾[4] ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[5] ومن حُبِّه له منع الذبان من السقوط عليه ، وحدد كيفية العلاقة والتعامل

---

(١) سورة المنافقون : ٥-٦ .

(٢) سورة النساء : ٦٤ .

(٣) سورة النساء : ٦٥ .

(٤) سورة طه : ١٣٠ .

(٥) سورة الضحى : ٥ .

معه وأساسه الأدب ، فمنع رفع الصوت عنده ، وأثنى على الذين يغضون أصواتهم عنده ، فقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ**﴾[1] ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[2] ويبين سبحانه أن الأدب وخفض الصوت عند النبي أفضل وخير للإنسان ، ولو كان يقصد من رفع صوته الدخول في الإسلام . قال تعالى : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . . .**﴾[3] رغم أنهم كانوا ينادون على النبي ليدخلوا في الإسلام ، فكان خيراً لهم أن يصبروا على كفرهم حتى يخرج إليهم ، ولا يؤذوا رسول الله بصياحهم .

لم يستثن الله سبحانه أحداً من ذلك التعامل مع رسول الله حتى زوجاته (رضي الله عنهن) ، فإنَّ اثنتين منهن حينما أرادتا التظاهر على رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله – وهي أول تظاهرة في الإسلام على معلم الإنسانية الخير والسلام والرحمة المهداة – أعدّ الله لهما فوق ما تعرفه الإنسانية من

---

(١) سورة الحجرات : ٢ .

(٢) سورة الحجرات : ٣ .

(٣) سورة الحجرات : ٥ .

الإعداد للتظاهرات كقوات الأمن ، أو شرطة مكافحة الشغب ، أو الجيش النظامي!! ذلك لعظيم خطرها وأبعادها ؛ فإنها تظاهرة على أكرم وأشرف رسله لخلقه ، وأفضل من مشى على وجه الأرض ، وأعظم ما خلق الله في هذا الوجود . . . قال تعالى في الإعداد لهذه التظاهرة : ﴿ . . . **وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[1] ولا يقف أمره سبحانه عند الإعداد لهذه التظاهرة بهذا القدر العظيم ، بل يتعداه إلى التهديد بالطلاق الذي هو أبغض الحلال الى الله ، فيقول تعالى : ﴿**عَسَى رَبُّهُ . . .**﴾[2] ولم يقل «ربكن» أو «رب العالمين» إشارة لخصوصية العلاقة بينه وبين رسوله التي ليس لأحد فيها قدم ، ولو كن زوجاته ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ . . .**﴾ ويطال التهديد كلّ من كان يمكن أن يكون طرفاً في هذه التظاهرة ، وهم الأهل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[3] وكان السبب في ذلك أن بعض أزواجه أفشت سراً لرسول الله ، وإن إفشاء السر أمر تزهق فيه الأرواح عند الملوك ، فكيف بإفشاء سر نبي الله ورسوله . .!

---

(١) سورة التحريم : ٤ .

(٢) سورة التحريم : ٥ .

(٣) سورة التحريم : ٦ .

قال تعالى : ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ . . .**﴾[1] وأفشَته ، أطلَعَه الله على ذلك الإفشاء ﴿ . . . **وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ . . .**﴾ فبيَّن لها علمه بأنها أفشت السر ؛ لتحذر العاقبة وتبادر بالتوبة ، ولكنَّ تَصَرُّفَها لَم يكُن كما هو مُتَوَقَّع مع نبي الله ﴿ . . **فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ . . .**﴾ لم تعتذر عن عظم ما فعلت ، بل ردت بسؤاله عن مصدر علمه ، وهو كلام يميل إلى الإنكار . قالت : ﴿ . . **مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا . . .**﴾ كأنها لا تعلم أنه رسول الله ، والله يطلعه على ما يشاء!! ورغم ذلك لا ينال هذا الكلام من عظمة حلمه صلى الله وبارك عليه وآله ، ولا يثيره هذا الرد الذي لا ينبغي أن يكون لحضرة النبي ، وقد خلا من الاعتذار والندم ، ويُظهر التقليل من شأنه وعلمه بالأمر ورسالته!! وبعظيم خُلُقه يَرُد ﴿ . . . **قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ .

الله سبحانه هو العليم بعظمة أخلاق نبيه وتحمله للأذى . فقد كان صلى الله وبارك عليه وآله يستحي أن يُشعر من يؤذيه بما تأذى منه! فيأتي الأمر الإلهي بقوة الحق ليصحح كيفية التعامل مع رسوله صلى الله وبارك عليه وآله ، يقول تعالى : ﴿ . . . **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ . . .**﴾[2] ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾[3] . فلا

---

(١) سورة التحريم : ٣ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٣) سورة الفجر : ١٤ .

بد من الأدب كل الأدب مع حبيب الله صاحب الخلق العظيم ، وإلا فالعذاب في الآخرة ﴿ . . **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[1] .

مِن حُبِّ الله لنبيِّه محمد صلى الله وبارك عليه وآله أعطاه التصرف فيما لله وحده ، ففي الحديث القدسي : «**كل عمل بن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»[2] . «**جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ وبارك عَلَيْهِ وآله فَقَالَ هَلَكْتُ قَالَ وَمَا شَأْنُكَ قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ قَالَ هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً قَالَ لاَ قَالَ فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَ لاَ قَالَ فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِينًا قَالَ لاَ أَجِدُ فَأُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ وبارك عَلَيْهِ وآله بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ فَقَالَ خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ فَقَالَ أَعَلَى أَفْقَرَ مِنَّا مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا أَفْقَرُ مِنَّا ثُمَّ قَالَ خُذْهُ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ**»[3] ولَم يُذكَر أنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله أمَرَه بقضاء اليوم ؛ فلجوء الرجل إلى النبي أدخله في واسع رحمة قول الله تعالى : ﴿ . . . **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ . . .**﴾[4] . ولحُبِّ الله للنبي صلى الله وبارك عليه وآله شمل الرضاء أحبابه ، حتى أصبح مِن علو

---

(١) سورة التوبة : ٦١ .

(٢) البخاري .

(٣) البخاري .

(٤) سورة النساء : ٦٤ .

شـأنهم أن يرضـوا هم عن الله ، ويكون رضـاؤهم عن الله أمـراً يثـبـتـه الله في كـتـبـه ﴿ . . . **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْهُ** . . .﴾[1] .

لزوم التقوى والإيمان برسول الله هما الأولى للناس ، لأنهما رأس المال الذي يجلب الربح في تجارة لن تبور ﴿ . . . **وَاتَّقُـواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ** . . .﴾[2] فبتقوى الله يأتي العلم الذي إذا قُرن بالإيمان برسول الله ، ربحت التجارة وتضاعَفَت الرحمة ، وكان الفوز في الآخرة . ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غفور رحيم** . . .﴾[3] فالذين آمنوا برسول الله ، وجاهدوا بأنفسهم لمعرفة قَدرِه وما جاء به لإصلاح بالِهم ، هُم الذين ربحت تجارتهم التي دلهم عليها الحق سبحانه ، حيث قال جلَّ شأنه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ** . . .﴾[4] ، ولكن أكثر الناس رضوا بما ألفوا ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ** . . .﴾[5] فانشغلوا بما

---

(١) سورة البينة : ٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٣) سورة الحديد : ٢٨ .

(٤) سورة الصف : ١٠-١١ .

(٥) سورة النحل : ١٠٧ .

ضُمن لهم وهو الرزق ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1] وأهملوا ما طلب منهم وهو الإيمان برسول الله ، وما جاء به للارتقاء الروحي والعلمي والمعرفي . فقصرت همممهم عن العُلا رغم ما أشار به مَن بُعث مُعَلِّماً صلى الله وبارك عليه وآله في قوله : «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[2] ، كما حَثَّ على طلب العِلم الذي لا نهاية له وفرضه عليهم ، والذي على المرء أن يجهد نفسه في طلبه من المهد إلى اللحد ؛ لأنه حريص عليهم ، وقد بيَّن لهُم الآيات ليُخرجَهم من الظلمات إلى النور ، فكلّ الخلق في حاجة إلى رسول الله ، حتى أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات . قال تعالى : ﴿**رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . .**﴾[3] . «**فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**»[4] ﴿**. . . رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[5] واجعلنا من أولى الناس

---

(١) سورة الذاريات : ٢٢-٢٣ .

(٢) سنن ابن ماجة .

(٣) سورة الطلاق : ١١ .

(٤) سنن الترمزي .

(٥) سورة البقرة : ٢٠١ .

بنبـيك في هذه الدار ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُـولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً**﴾[1] .

(١) سورة الفرقان : ٢٧ .

الإيمان محبة النبي

حب النبي صلى الله وبارك عليه وآله أفضل العبادات ، وبه النجاة في الآخرة ، وقد بان ذلك في حديثه للذي أجابه صلى الله وبارك عليه وآله حينما سأله ماذا أعد للآخرة قال : «ما أعددت لها من كثير عمل ، غير أني أحب الله ورسوله» فأجابه النبي صلى الله وبارك عليه وآله : «**أنت مع من أحببت**»[1] . فحب النبي صلى الله وبارك عليه وآله هو الإيمان ؛ لقوله صلى الله وبارك عليه وآله : «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[2] لذلك كان صلى الله وبارك عليه وآله أجمل الخلق ، وما يوسف عليه السلام إلا شطر من جماله ، وذلك من لطفه تعالى بالعباد ؛ حتى يحبه كل من يقع بصره عليه ، إلا شقي لا يبصر ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[3] . ولم يتعد الشيب في رأسه ولحيته سبع عشرة

---

(١) مسند أحمد .

(٢) البخاري .

(٣) سورة الإسراء :٧٢ .

وذلك لطفاً بأمهات المؤمنين ، فإن بعض النساء يكرهن الشيب ، ومن كره شيئاً في رسول الله فقد جافاه ففقد بذلك المحبة التي هي الإيمان . فكان صلى الله وبارك عليه وآله مظهر الحسن الإلهي والجمال الباهي . فحبه هو الجواز لدخول الجنة ، وليس العمل الذي إذا حوسب صاحبه هلك ، والذي لا يجب على الله قبوله وإن صلح ، ولو كان ذلك العمل هو القتال في سبيل الله ، رغم أنه القمة في صالح الأعمال ؛ ذلك لأنه يحتاج إلى إصلاح البال بمعرفة مقام النبي صلى الله وبارك عليه وآله وما جاء به ؛ لأنه الغاية .

لكن من قُتِل في سبيل الله ، وكانت تنقصه هذه المعرفة ، فإن الله سبحانه سيهديه ويعرفه إياها ليدخله الجنة ، لأنه حي لتلقي هذه الهداية والمعرفة التي يحتاجها لدخول الجنة ، وهي إصلاح البال بمعرفة محمد صلى الله وبارك عليه وآله وما جاء به . قال تعالى : ﴿ . . **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾[1] فالذي يقتل في سبيل الله لن يضيع الله سبحانه عمله ؛ لقوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** . . . ﴾[2] فيصلح باله بتعريفه بالمقام السامي لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وما جاء به ليحصل له الحب لرسول

---

(١) سورة محمد : ٤-٦ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

الله ، فتتم له الشهادة ليدخله الجنة ؛ لأنّ «**المرء مع من أحب**»[1] . ومَن يُصلَح بالُه بمعرفةِ الحبيب وحُبِّه نالَ الشهادةَ ، ولو كان على فراشِه دون أن يُقتَل ؛ قال صلى الله وبارك عليه وعلى آله : «**أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش**»[2] .

يحكى أن أحد العلماء كان في سفر ، ونفد ما عنده من الماء وأصابه العطش ، فوجد بئراً في الطريق ، ولكن لم يجد عندها أحداً ، فجلس ينتظر لعلّ الله يأتي بمن يرتادها ، فيحصل على ما يحتاجه من الماء . فإذا برجل أشعث أغبر يحمل إبريقاً يمر بالطريق نفسها ؛ ليجد العالم عند البئر في انتظار من يسقيه ، فوقف الرجل عند البئر ورفع رأسه إلى السماء وقال : «لأغضبن» وكررها ثلاثاً . فإذا بالماء يفور من البئر ، ويندفع إلى خارجها ، فملأ الرجل إبريقه وتوضأ ، وبعدما شرب ذلك العالم وأخذ ما يحتاجه من الماء ، التفت إلى الرجل فلم يجده ، ولم يجد تفسيراً لما رأى ، ولما رجع من سفره سأل عدداً من أهل العلم ، فلم يجد من يفيده ، حتى انتهى به الأمر إلى أحد العارفين فقال له : «ذلك الرجل الذي لقيت كان من أحباب النبي الذين قال الله فيهم : ﴿ . . . **وَرَضُوا عَنْهُ** . . .﴾[3] فإن الله لا يغضبهم ، إكراماً لرسوله الكريم محمد صلى الله وبارك

---

(١) البخاري .

(٢) مسند أحمد .

(٣) سورة المائدة : ١١٩ .

عليه وآله» . قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**رب أشعث أغبر ذي طمـــرين تنبـــو عنه أعين الناس لو أقـــسم على الله لأبره**»[1] . وذُكِرَ عن السهروردي الشهيد : «الفقير هو الذي لا يكون له الى الله حاجة» ؛ وهذه العبارة تعني أن الفقير لا تعلق له بما في هذا الكون كله ، وأنه واثق بالذي خلقـه ، وهو الذي يتصرف فيه ويفعل به وله ما يشاء .

(١) المستدرك .

مَقصَد العِلم

زينة العلم الأخلاق ، وتتمثَّل في عدم التباهي به وادعائه . والله سبحانه مدح حبيبه بعظيم الأخلاق لا بالعلم . كبُر مقتاً أن يقول الإنسان عن نفسه إنه عالم ، كمن يُطلِقون على أنفُسِهم أنهم «رابطة العُلماء الشرعيين» ، وبعضهم لا يرضى إلا أن يضيف لها ما يُظهِر كبرياءهم فيقولون : «رابطة كبار العلماء الشرعيين» – هكذا يصنِّفون أنفسهم! و«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1] فالذي يقول إنه عالم هو الجاهل ؛ لأن الإنسان طالب علم من المهد إلى اللحد . والعِلم الذي لا يرقى بصاحِبِه إلى نبذِ رؤية النفس ، ونبذ العُجب ، والتَّبَرِّي من الحول والقوة ، واحترام الآخر – أيّاً كان ذلك الآخر من حيث إنسانيته – فهو عِلمٌ يُستعاذُ منه . . «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**»[2] . والعلم من مهامه الإيصال إلى الأخلاق ، فهي ذراه ، ولا تكون إلا في قلب ملئ بالحب ، فيحسن التعامل والأدب ؛ فإن القلب الذي يبغض تخشوشن

---

(١) مسلم .

(٢) مسلم .

أفعال صاحبه ، وتظهر عليه القسوة التي هي على النقيض من الرحمة ﴿ . . . **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم** . . .﴾[1] فإن النفحات العلمية والفيوضات الربانية والتجليات الإلهية لا تتنزل إلا على صاحب قلب رحيم «**وشر الناس هو الذي يبغض الناس ويبغضونه**»[2] . يحكى عن الشبلي (رضي الله عنه) أنه كان جالساً آناء الليل يذكر الله في مصلاه ، ونامت الهرة على كُم جلبابه ، وطلع الفجر ، فقطع ما كانت تنام عليه الهرة حتى لا يوقظها ، وقام إلى الصلاة .

إذا تيقنا أن العلم هو فيض من الله سبحانه ، وإن كان العبد هو المستمطر لذلك الفيض بحسن أخلاقه وسلوكه – الذي هو توفيق بحول الله – فانظر كيف يكون ذلك الفيض على من يمدحه الله بحسن خلقه؟ هل يترك له من فيض العلم شيئاً؟؟ .

إن انكباب الناس على الكيفيات والعلل الموصلة إلى النتائج التي يحصل بها للمرء اليقين – كما ذكرنا في قصة إبراهيم عليه السلام – شغل الناس عن واهب العلم تعالى ، وإلى ذلك انصرف الناس وتسابقوا – إلا من تدبر – وأصبح العالم بالكيفيات والإجراءات هو العالم عند الناس ، وإن لم ينسبها إلى واهب العطاء . والعلم هو المعلومات . والفيض

---

(١) سورة الزمر : ٢٢ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل .

العلمي هو ما استجد من معلومات ، فالمجهول إذاً هو المخزون الأكبر للعلم ، وهو الذي تأتي منه المستجدات . والفيض العلمي هو بيد الله سبحانه لا يبديه إلا لمستحقه الذي يتصف بالأدب ، وحسن الخلق ، وحب الخير للناس . وقصرت العقول – بانحصارها في إثبات العلم هنا – عن معرفة العارف المُفاض عليه ، بعلم يوصل إلى النتائج بغض النظر عن الكيفية ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ . . .**﴾[1] بل قد يذهب الظلمانيون إلى اتهام العارف المفاض عليه بمعرفة النتائج بالسحر ؛ لأن قلوبهم صدئة خالية من الأدب والمحبة ، فيبادرون بالعداء ؛ لافتقارهم الأخلاق التي تحسن التعامل ، واتخذوا الإنكار علماً ، ومن أنكر شيئاً جهله ، ومن جهله عاداه «فالمرء عدو ما جهل» . فهم أعداء العلم ؛ لأن العلم في صدور العارفين المتهمين لديهم .

إذا قلنا إن الله سبحانه مدح رسوله صلى الله وبارك عليه وآله في قوله : ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2] وإنه بذلك لم يترك له من فيض العلم شيئاً ، فماذا نفهم من قوله تعالى : ﴿ . . **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[3]؟ ونقول دائماً إن النص مقدس والفهم غير مقدس ، فمما نفهمه من هذه الآية الكريمة هو أن

---

(١) سورة يونس : ٣٩ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة طه : ١١٤ .

العلم المقصود هنا هو العلم بالله – لأنه غير متناه – فإن زيادة العلم في الشيء تجلب زيادة المحبة . قال تعالى ﴿ . . **لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ** . . .﴾[1] لأن من جهل شيئاً عاداه ؛ وهذه إشارة إلى ازدياد المحبة في الوهاب ﴿ . . . **الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[2] ﴿**الذي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[3] ﴿ . . . **الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ** . . .﴾[4] . . ﴿ . . . **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** . . .﴾[5] .

والمُدَقِّقُ في معرفة ما بُعث به محمد صلى الله وبارك عليه وآله في الحديث «إنما بُعِثتُ لأُتَمِّم صالح الأخلاق»[6] يجد أن الشريعة هي الحد الأدنى لما بُعِث به صلى الله وبارك عليه وآله ، وهي التي جاء بها كل الرسل السابقين ، وجاء محمد صلى الله وبارك عليه وآله مصدقاً لها ، ومهيمناً بإتمامه صالح الأخلاق التي هي الغاية في الرسالات ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ**

---

(١) سورة الفتح : ٤ .

(٢) سورة طه : ٥٠ .

(٣) سورة غافر : ١٩ .

(٤) سورة يس : ٨٣ .

(٥) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٦) مسند أحمد .

الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ . . .﴾[1] فالشريعة هي القانون الذي يبين الحقوق والواجبات في المجتمع ، ويحدد كيفية الحفاظ عليها . وجاء محمد صلى الله وبارك عليه وآله بما يَسْمو به الإنسان فوق المطالبة بالحقوق : كالعفو والإحسان ، وهي صالح الأخلاق ؛ لذلك أُخِذَ العَهدُ على الأنبياء كلهم للإيمان بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾**[2] ؛ وعليك أن تتأمل قول الله تعالى : **﴿ . . . وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾**[3] لمعرفة القدر المحمدي ، فقد كان نبياً وآدم منجدل في طينته . وأرسله الله شاهداً على رسالاتهم ليصدق عليها **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا . . .﴾**[4] لأنه سبقهم في الوجود نبياً وصلى عليه الله ، وهو أول المسلمين . قال تعالى : **﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ**

---

(١) سورة النحل : ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران : ٨١ .

(٣) سورة آل عمران : ٨١ .

(٤) سورة الأحزاب : ٤٥ .

أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] . فالشريعة هي القانون الإلهي الذي يتعلَّق بمنع التعدي وحفظ الحقوق كافّة في مُعاملات الناس فيما بينهم في الأجر أو المقابل أو العوض أو الجزاء ، وهي التي يتحاكمون إليها وقد بيَّنها الله سبحانه في كتبه السماوية المقدَّسة ، فقد أنزَلَ الله تعالى في توراة موسى عليه السلام ما أكَّدَه قرآن محمد صلى الله وبارك عليه وعلى آله **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[2] . وكذلك هي التي تحكم تعاملهم مع خالقهم عند طلبهم الثواب منه والأجر . والحكم المقصود هنا في هذه الآية هو القضاء وليس الحكم السياسي ، فلم يكن الأنبياء حكاماً ولا رؤساء في أممهم . وما جاء محمد صلى الله وبارك عليه وعلى آله لاغياً لحكم التوراة بل مؤيداً . وقال تعالى : **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ . . .﴾**[3] **﴿ . . وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً . . .﴾**[4] ولقد كان الرسل السابقون ، فيما بُعِثوا به

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢-١٦٣ .

(٢) سورة المائدة : ٤٥ .

(٣) سورة المائدة : ٤٤ .

(٤) سورة هود : ١٧ .

لخلق المجتمعات الفاضلة ، محددةٌ أماكن رسالاتهم إلى قُراهم : ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . .**﴾[1] وإلى أقوامهم ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . . .**﴾[2] أما محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، فقد جاء بالرسالة الخاتمة الحاوية لما سبق من الرسالات ، ومؤيدة لها ، وهي للناس كافَّة ، لا تحدها حدود جغرافية ولا قومية عنصرية ، وما جاءت لتأسيس دولة ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . .**﴾[3] ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ . . .**﴾[4] فالرسل قبله ينسبون إلى قراهم أو إلى قومهم ، فقد كانوا نواباً عنه في أممهم ، وقد أُخذ العهد عليهم للإيمان به ونصرته ، وجاء مصدقاً لما معهم ، فهو على رأسهم جميعاً وبه يتم تأييدهم . قال صلى الله وبارك عليه وعلى آله : « **. . . آدم فمن دونه تحت لوائي**»[5] .

أعرف الناس بالله هو محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، ورغم ذلك قيل له ﴿**. . . وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[6] أي بالله ، فالعلم بالله لا نهاية له ، لذلك على المرء أن يجعل علاقته بالله

---

(١) سورة الأعراف : ٨٥ .

(٢) سورة هود : ٥٠ .

(٣) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٤) سورة سبأ : ٢٨ .

(٥) مسند أحمد .

(٦) سورة طه : ١١٤ .

عن طريقه ولا يَتَخَطّاه بادعاء التوحيد ، كأنّ له علاقَةً مع الله مباشرةً ، مُستَنِداً على تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . . .**﴾[1] لأن ذلك لا يؤيِّد دعواه . . فالآية لم تقُل : «وإذا سألني عبادي» بل ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي . . .**﴾ ، فَجَعَلَت النبي صلى الله وبارك عليه وآله هو المرجع الذي يُبَيِّن الطريق لمن يريد معرفة الله . فالآية تتحدث أولاً عن السؤال عن معرفة الله قبل الدعاء ، فإنك لا تدعو من لا تعرف ، فأحالت الآية العباد إلى النبي كي يسألوه ليعرفهم بالله إذا أرادوا ؛ لأنه فوق العباد أجمعين بمعرفته بالله ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . . .**﴾ . فالسؤال يجب أن يكون مُوَجَّهاً من العباد للنبي صلى الله وبارك عليه وآله أولاً عن الله ليُعرِّفهم به . فهو الذي يُوضِّح لهم كيفية القُرب الإلهي ، وكيفية إجابة الدعاء مع موافقة الإرادة ، ومتى يُستَجابُ الدعاء ، ومَن الذي يستجاب له ، وما هي الأسباب الموصلة إلى ذلك ، فلا توحيد بتجاوزه ، بل خُسران مبين . ولقد وضَّحنا بأن الله سبحانه أبان ذلك حينما استشهد بقول عيسى عليه السلام مع الحواريين حيث قال تعالى : ﴿ . . . **كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ . . .**﴾[2] ولم يقولوا نحن انصارك

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٢) سورة الصف : ١٤ .

إلى الله كما كان يجب عليهم أن يكونوا لملازمته ﴿ . . . **فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ** . . .﴾[1] فاذا بالحواريين الذين قالوا : « . . . **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّه** . . .» يقولون لعيسى عليه السلام : ﴿ . . . **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** . . .﴾[2] ولو كانوا مُلازمين لَهُ لَهَذَّبَهُم السُّلوكُ ولأسْكَتَهُم الأدبُ عَن هذا السؤال الذي لا يمكن صدوره مِمَّن لازَموا الصادقين والأنبياء .

(١) سورة الصف : ١٤ .

(٢) سورة المائدة : ١١٢ .

من عنده علم الكتاب..!

أوحى الله سبحانه إلى حبيبه محمد صلى الله وبارك عليه وآله : ﴿ . . . **قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾[1] . ويُفهَم مِن هذه الآية الكريمة أن الذي عنده علم الكتاب غير مَن أُنزلت عليه هذه الآية . قيل : إنه صاحب الزمان عليه السلام . ولا يُقيِّدنا فهمٌ في كتاب الله ، فالنَّصُّ مُقدَّس ولا تقديس للفهم ، فالمِنَح الإلهية لم تقِف عند السَّلَف -كما يرى بعض من يحجرون العقول- ولا نهاية لها ، ولا تنفد عطايا الله الواسع العليم . ولكن الكتاب الذي فيه العلم نفسه هو قرآن محمد صلى الله وبارك عليه وآله الذي حوى زبور داوود وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام ، فليس للذي عنده علم الكتاب عِلم زائد على ما عند محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، رغم ما عليه من القدر الذي مِن أجلِه أوحى الله إلى حبيبه محمد صلى الله وبارك عليه وآله أن يجعله شهيداً مع الله على سموِّ رسالته ، التي يَكفُر مَن يَجحد أو يَطعَن في أحَقِّيَّةِ محمد لها بِنِسبَةِ نَقصٍ لَهُ فى العِلم أو

(١) سورة الرعد : ٤٣ .

الخُلُق ؛ فإنَّ الذي يقول أو ينسب إلى الذات الشريفة شيئاً من ذلك فهو حقيقةً مع الذين قالوا : ﴿ . . . **لَسْتَ مُرْسَلاً** . . . ﴾[1] . . . ﴿ . . . **قُلْ كَفَى بِاللّه شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾[2] . فمحمدٌ أعظَمُ خَلق الله ، وأصلُ العلوم ، والبَرزخُ بينَ الحَقِّ والخَلق ، لأنه حقّ لقوله تعالى : ﴿ . . . **وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . . . ﴾[3] وهو خلق لأنه رسولٌ للناس كافّة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ** . . . ﴾[4] من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام ، وشاهد عليهم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا** . . . ﴾[5] لأنه أول المسلمين ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[6] والكتاب كتابه . فهو أول المسلمين ، وشاهد على الأمم ، ومصدِّق على رسالات رسلهم . قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَة ، فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ : هَلْ**

---

(١) سورة الرعد : ٤٣ .

(٢) سورة الرعد : ٤٣ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٦ .

(٤) سورة سبأ : ٢٨ .

(٥) سورة الأحزاب : ٤٥ .

(٦) سورة الأنعام : ١٦٢-١٦٣ .

بَلَّغَكُمْ ، فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ، فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ»[1] والنبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله شاهدٌ على كل الرُّسُل ورسالاتهم ، ولكن هناك استثناءات في شهادته تلك في قوله تعالى : ﴿ **. . . وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ . . .**﴾[2] ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ . . .**﴾[3] ﴿ **. . . وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ . . .**﴾[4] ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا . . .**﴾[5] .

الناس لا تأخذ من الحق كفاحاً ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً . . .**﴾[6] فلابد من رسول للبشر بينهم وبين الله سبحانه ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ . . .**﴾[7] ؛ فالناس لا يمكن أن تأخذ عن الله كفاحاً ولا عن محمد صلى الله وبارك عليه وآله في حالة كونه حقّاً ، فلا بد من بشريته ليؤخذَ عنه .

---

(١) البخاري .

(٢) سورة آل عمران : ٤٤ .

(٣) سورة القصص : ٤٤ .

(٤) سورة القصص : ٤٥ .

(٥) سورة القصص : ٤٦ .

(٦) سورة الشورى : ٥١ .

(٧) سورة الحج : ٧٥ .

قال صلى الله وبارك عليه وآله : «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**»[1] . وفي حالة كونه خلقاً لا بد أن يوحى إليه . . . ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ** . . .﴾[2] والتعريف للمعرف يقود للشك فيه . . فلماذا يقال لبشر : ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ** . . .﴾[3] . .؟

فهو صلى الله وبارك عليه وآله حق ؛ لأنه يأخذ عن الحق ولا يأخذ عن الحق إلا الحق ﴿**وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** . . .﴾[4] وهو خلق ليأخذ عنه الخلق ؛ لأنّ الخلق لا يأخذون عن الحق بل عن الرسل .

وإذا تيقَّنّا أن حبيب الله محمد صلى الله وبارك عليه وآله عنده كلُّ علم الكتاب ، فذلك يعني إحاطته بالعلم كلِّه ؛ لأنّ الكتاب حوى كلّ شيء ، بما في ذلك علم الغيب الذي يتعلَّق بالزمان وغيره ، قال تعالى : ﴿ . . . **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** . . .﴾[5] والله سبحانه لا يقال في حقه إنه شيء أو لا شيء ، فإن قلت : هو شيء فقد حددته ، وإن قلت : لا شيء فقد عدمته ، والله أعلى وأجل . وبما أن الله سبحانه وتعالى

---

(١) تفسير الألوسي .

(٢) سورة الكهف : ١١٠ .

(٣) سورة الكهف : ١١٠ .

(٤) سورة الإسراء : ١٠٥ .

(٥) سورة الأنعام : ٣٨ .

أكبر ، فالعقل عاجز إذ لا مجال للعقل بمعرفة ما هو أكبر منه أو وصفه ﴿ . . **وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[1] فترد المعرفة بالله إلى رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله . قال تعالى : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي** . . .﴾[2] . فلا يعرف الحق إلا الحق الذي بيَّنه الله بقوله : ﴿ . . **وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ** . . .﴾[3] فيُعرِّفه للخلق . وكل الناس فقراء إلى رسول الله لمعرفة الله تعالى .

قد يظن بعض الناس – وإنّ الظن أكذب الحديث – ورغم وجود هذه الآية التي أنزلها الله تعالى : ﴿ . . . **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** . . .﴾ ، أن الذي عنده علم الكتاب قد لا يكون عالماً بما وصل إليه العلم الحديث من التقنية العالية ، لا يسندهم في ذلك سوى ظنهم . لأنّ العالِم عندهم لا يُعتمد إلا إذا وضَّح الكيفية التي تم بها وصوله للنتيجة . والعارف الرباني يصل إلى النتائج دون حاجة للإجراءات التي تتخذ للوصول إليها ، ويسمى ما عنده من علم بالعلم اللدني ، وضرب الله سبحانه مثلاً لذلك بالخضر عليه السلام . ويروى عن باب مدينة العلم علي عليه السلام أنه مرَّ بنهر الفرات فقال : «يا بحر لو شئت لأخرجت منك ناراً ونوراً وسيكون ذلك حين

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٦ .

يمشي الحديد» . قالوا : «أوَ يمشي الحديد يا أمير المؤمنين؟» قال : «بل ويطير» . وقد نجد مَن لا يصدق بهذه الرواية ومن يستهزئ بها ، بل وهناك من يضحك منها وهو يصدق نبوءات نوستراداموس . قال تعالى : ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾[1] . وهذا حال الجاحدين والجاهلين . ولا يصيب الإنسان ضرر إذا صدق بهذه الرواية ، فالعالم هو الذي يبحث وراء المعلومة للوصول إلى الحقيقة ، والجاهل هو الذي يتخذ الإنكار علماً . ومن ينكر شيئاً من هذا العلم ، فإنّ أقل ضرر يصيبه هو أن يحرم بركته ، ما في ذلك شك ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا . . .**﴾[2] . وإذا كان هذا شيئاً من علم باب المدينة عليه السلام ، فكيف بالمصدر الذي قال : «**أنا مدينة العلم**»[3] الذي أنزل عليه الكتاب؟ لَتَجِدَنَّ كل كلمة تخرج من فمه الشريف علماً يتدفق نوراً ، يهتدي به كل من يُسَلِّم تسليماً . انظر إلى قوله صلى الله وبارك عليه وآله : «**أحلت لنا ميتتان . . .**»[4] وهما الحوت والجراد وهذا لعلمه أن الجراد يخرج من الحوت ، فأصلهما واحد . قال صلى الله وبارك عليه

---

(١) سورة الزخرف : ٤٧ .

(٢) سورة الإسراء : ١٠٧ .

(٣) المستدرك .

(٤) مسند أحمد .

وآله : «**الجراد نثرة حوت في البحر**»[1] ولم يصل الناس إلى الآن إلى تبيين ظاهرة خروج الجراد دفعة واحدة بتلك الأعداد المليونية! إن كان ذلك عن طريق التكاثر ، فلا يمكن أن يكتمل نمو هذه الملايين التي تغطي السماء فجأة في يوم واحد!! وإن كان عن طريق التكاثر ، فكيف لا يبصرها الذين أوكِلَت لَهُم مراقبتها لمحاربتها في تشرنقها قبل طيرانها؟ والملاحظ أن سير الجراد يبدأ من شواطئ البحار ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا . . .**﴾[2] فالعاقل هو من لا يسيء إلى نفسه بتوجيه اتهام لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله بنقصٍ في علم حدث بعده ، ومن يظن ذلك فقد جهل ؛ لأنه حكم بما أملاه عليه ظنه الذي هو أكذب الحديث ، وهو استكبار بما عنده من علم ، وليراجع إيمانه في كتاب الله ، وتحديداً في قوله تعالى : ﴿ **. . مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْ . . .**﴾[3] وهل هناك من هو أعلم بكتاب الله من محمد صلى الله وبارك عليه وآله؟ . والذي يظن أن الناس قد وصلوا الآن إلى درجة عالية من العلم والتطور ، فليعلم أنه قد سبق من الأمم من قال الله العليم فيهم ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن**

---

(١) سنن ابن ماجة .

(٢) سورة الإسراء : ١٠٧ .

(٣) سورة الأنعام : ٣٨ .

قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا . . .﴾[1] .

والحمد لله أولاً وآخراً وهو المستعان وعليه التكلان ، وصلِّ اللهم وبارك على محمد وعلى آل محمد .

(١) سورة الروم : ٩ .

الفهرس

مفتتح	7
معنى العصمة	11
لطائف موسوية	19
الأرض	29
حيرة . . . وأسئلة	35
القمر / منازل القمر	39
تبدلات الأهلة	45
القمر والبشر	49
سُنَّة المعارضة	57
العصيان بفتوى . .!	63
تبشير . . لا تنفير . .!	69
الذِّكر والذّاكِر والمَذكور	75
الإيمان بالرسول	79
طلب الأجر على العبادة . .!	83
تَدَبُّر قول المرشد	89
الطريق إلى الله	93
الفتاوى والدين	97
ما هو علم الغيب . . .؟	103
أسرع الحاسبين . .!	111
خليفة الله في الأرض	119

مقام الخلة	125
كرامات الصالحين	129
النبي الأُمّي	135
الغَيبة	143
الأخذ عن معلم	149
أخطاء وخطايا بحقّ النبي	155
محبة الله للنبي	161
الإيمان محبة النبي	173
مَقصَد العِلم	177
من عنده علم الكتاب . .!	187
الفهرس	195

www.Abugroon.com